الفائزون
2015 - 2016

الهيئة العامة لقصور الثقافة

مصيدة الفراشات

مجموعة قصصية

مصطفى الشيمى

مصيدة الفراشات

مجموعة قصصية

مصطفى الشيمى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

- ١ -

الصحراء التي تمتد بلا نهاية لا تبصر العين من ورائها واحة أو سراباً، الجبال مشدودة في سلسلة عن اليمين واليسار، كل شيءٍ يجبر السائر على طريق محدد، والصخور المغروسة أسفل الرمال تدمي القدمين، لقد أحسّ هذا الفارس، الآتي من الأسطورة، بقوة الجبار التي تهيمن على الكون فشعر بالفزعِ، داس عقرباً صغيرةً بعصاه حتى انغمست في الرملِ، وظل يمشي حتى رأى خيمة وحيدة في هذا الأصفر الموحش، وقال لـمّا دخل الخيمة: النجوم ترشدني إلى البيتِ، فلعلها تصدق مع العرافات أيضاً.

لقد زار تلك العرافة السمراء في خيمتِها بالأمسِ، مشى على خطوات الذين رحلوا حتى وصل إليها، رآها امرأةً عجوزاً تخفي التجاعيد حقيقتها، ولها عينان بيضاوان لا ترى منهما شيئاً.

قال في سرِّه: "لعلها لهذا ترى ما لا نراه" زجاج الغيب مصنوع من الرملِ، زجاج مملوء بالندى والسرابِ، وهي تجلس مقرفصة هكذا، تقول ما أن تراه: "جئت تسأل عن قدرك" قالَ: "وما قدري؟"، الحرب ستبدأ بالغدِ، كل الأساطير والأبطال الذين خلدتهم الملاحم سيبعثوا من جديد ويشاركوا فيها. وهو من يكون؟ محض ظل، تراب، ردى أو دخان لا يذكر ماضياً أو ذكرى حرب عظيمة، ولا يريد أن يموت في الغد، كقطعة شطرنج حقيرة، يريد أن يخلد للأبد.

واستيقظَ على صليل المعركة، كان يحارب بقوة لم يعرفها، كان عملاقًا جدًا مثل هرقل، كان شجاعًا مثل آخيل، نافورة الدم تنفجر من الرؤوس التي يقطعها، يداه تلوثتا باللون الأحمر، وبدأ يعدو نحو الأعداء بجنون كأنما لم يكن بالأمس محض فأر مذعور، وفي منتصفِ الحربِ شرد فجأة وعاد يفكر فيما قالت العرافة مرة أخرى.

ابتسمت العرافة لمّا قرأت ما في صدرِ الرجل، وقالت: "تظن أنك تريد الخلود، لكن هل تريد ذلك حقًا؟"، لقد أمسكت بروح الرجل بين يديها، وعصرتها عصراً، هو لا يريد هذه الحرب، لا يريد الموت أو الخلود، يريد أن يستمتع بالحياة فقط؛ لذا قالت العرافة: "اعرف بأن الغد لم يولد؛ لذا عش كأن اليوم أبدًا"، وتابعت: "واستمتع باللعبة، وقطع الرقاب، ولا تفكر في عواقب شيء"، وعندما طلب منها أن يرى من بلورتها السحرية غضبت، ورفضت، وأمرت بأن يدفع أجرها ويرحل.

واستيقظ من شروده على صيحات القتلى، أحسّ بجبن مفاجئ وبرد يتسلل إلى الروح، برد لا يتسق مع الصحراء المشتعلة، وأبراج النار، والسيوف التي شربت من ماء النار فلم ترتوِ، وحده الدم يرويها ويرعاها، ظل واقفًا كتمثال مبتور اليدين والقدمين، يفكر بأن هذه الدماء ستظل تطارده، وكذلك أشباح الموتى، وربما سيندم حينها على هذه اللحظة، هكذا كان يفكر قبل أن ينفجر في الصحراء كنافورة دم، وكالوان ماء غطت كل شيء.

- ٢ -

لقد مشى هذا الفتى النحيل على نافورة الدم المنفجرة للتو فانتفض مرعوبًا، نظرَ إلى الحرب بعينين مرتجفتين وتأكد أن هذا ليس كابوسًا، هذه الحرب تدور ، كالرحايةِ، وتدهس من يقع أسفلها، لقد تذكر ما دار بالأمسِ أمام تلك العرافة، دلفَ خيمتها، كان يرتعش من شدة الخوف ويتعرق بغزارة، لم يجد سواها لتنقذه .. هل يموت غدًا؟ أم يصير بطلاً؟.

قال لها: "الحرب غداً".

فأجابت: "وتخشى الموت أيها المسكين"، ثم تابعت: "لكنك لن تموت، ستصير أشجع الشجعان يا صغيري".

وحاولَ الفتى أن يصيرَ، لقد رأى في البلورة السحرية معجزات عديدة، لكنها لم تتحقق، السيف ثقيل جداً، السيف خشبي وثقيل، وقف أمام الأعداء وحاول أن يقطع رقابهم

جميعاً، كان موقناً بأن العرافة وضعت تعويذة لتساعده، صدقَ أن السيف سيقاتل وحده، لكن السيف لم يفعل، سقط الشاب ميتًا على الأرضِ، وظل سجينًا داخل تلك البلورة السحرية للأبدِ.

-٣-

كان الجميع محبطين قبل بداية الحرب، فهناك فارس عظيم قد رحل، وجدوا جثمانه في وادي الموتى، تعددت الأقاويل: قيل بأن العدو أرسلَ فرقة اغتيالات كاملة وراءه؛ لأن نصف الحرب مرهون بوجوده، وقيل بأن ذلك الفارس قد ذهب إلى وادي الموتى بكامل اختياره؛ ليقاتل الشياطين والأرواح المظلمة وحده، كان يتدرب أو يلهو وانتصرت الشياطين، وقيل أيضاً بأن ذلك الفارس قد جن بعدما ذهب إلى عرافة الصحراء بالأمسِ.

على عكس محاربي الصحراء لم يخشَ العرافات ولا الرؤى، يعرف جيداً أن السيف وحده، يصنع الأقدار؛ لذلك لم يُبْدِ خوفًا حين دخلَ خيمتها، سألَ العرافة بغلظةٍ: "ماذا سيحدث غداً؟"، فتحولت العرافة إلى شيطانٍ حقيقي وهي تصيح بجنون: "ستموت .. ستموت أيها الملعون"، وفجأة عدا من صرخاتها والحشرات التي تخرج مع كلماتها، وظلت صرخاتها تطارده وهو يعدو "ستموت"، ولم يشعر بالخوف بقدر تلك اللحظة، ظل يعدو وهو يرى ملائكة الموت تتجلى في كل مكان، ووجهها يطارده في الصحراءِ بشعرِها المنكوش،

وحاجبيها الكثيفين، وصوتها المرتعش، لقد أحسَّ بخطوهم وراءه، ودخل وادي الموتى دون أن يقصد، سمع صهيل خيول ونهيم فيلة وحيوانات أخرى لم يذكرها التاريخ، وقررَ محاربة الجميع، الظلال والشياطين والملائكة، دار حول نفسه وهو يهذي: "سأنتصر"، ثم صمت لحظة كي يفكر، ولّما فكر أدرك، ولّما أدرك ترك السيف يسقط، واستسلم للموت، فانهزم.

-٤-

أثناء الحرب كان يرقص، يحرك السيف ويقاتل، كان يتمايل مع الصليل والصهيل ويمتزج بالأسطورة، لقد أحبَّ الحياة بصدق، وعاشَ كل لحظة جيداً، وها هو يصلي لأرواح الذين سقطوا، ولأرواح من لم يسقطوا بعد، بالأمسِ زار العرافة في خيمتها، لقد رأى النجوم تتلألأ، والجوارح تصلي للربِّ الذي سينزل لها مائدة من السماءِ، جلسَ أمام الحطب، نظرَ إلى القمرِ، نام على رموشِ الليل.

كانت العرافة تراقب ذلك الشاب بجوار ابنتها، يعدان القطع الذهبية معًا، قالت العرافة بحسرة: "لقد سرقني الرجل الأخير".

فضحكت الفتاة وقالت: "لقد جنَّ يا جدتي"

فعادت لتقول: "لقد سرقني المجنون".

سألتها الفتاة: "كنتِ تعرفين بسرقتكِ فلماذا تحزنين؟".

فأجابت: "كُتب أنني سأسرق، كُتب أنني سأحزن".

تعجبت الفتاة لم يحاول الناس معرفة أقدارهم طالما لن يغيرها شيء؟ ولم تجبها، وعرفت الإجابة لما دخل إليها ذلك الشاب، فسألت العرافة: "ماذا تريد؟".

فقال: "لا شيء، سأعرف الإجابة وحدي".

ورحل عن المكان وهو يدندن ويغني ويرقص لم يشعرْ بالخوف، الحرب قادمة على أية حال، الأساطير كلها ستبعث من جديد، الفئران تستعد والجوارح تترصدها، ومن يبالي؟ سيرقص ولن يبالي.

فأر يُدعى ثعلب

الجوارح التي تحلقُ بالأعلى تترصدُني وتنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليّ، وأنا ليس مقدراً لي أن أموتَ الآن، عليّ أن أقصّ حكايتي أولاً، لعل الصحراء تحفظُها من الموت، وتحملها الريح إلى فأر آخر لمّا يولد، ربما يكون أكثر جنونًا وشوقًا للفناء، ربما يحققُ حلمي وأحلام الفئران الجبناء، لقد أداننا التاريخ دومًا ودنسنا بما يكفي، ها نحن نجري في كل اتجاه، نحاولُ الهروب من المخالبِ الحادة، لكننا نفشل، أراقبنا من مخبئي أسفل صخرة، يتقهقرُ جيشنا ويسقط صديقيَّ "بومة" و"ثعبان" هكذا اعتادت عشيرتي تسمية أبنائها تيمنًا بأعدائنا حتى نكون مثلهم، لكننا لم نأخذ منهم سوى أسمائهم، كنا شجعانَ بما يكفي ولكن أغبياء وحمقى؛ لذا اختار لي أبي اسمًا جديدًا، قال: "سميتك ثعلب فاتبع معناك، ولا تقل أبدًا إنك فأر، نحن لسنا فئرانًا، ولن نكون".

أتسللُ بعيداً عن مخبئي، بعيداً عن أعين الجوارح، وأهربُ أكثر حتى أبتعد إلى الصخرة العوراء: علامة الموت – بداية الصحراء. "ممنوع على الفئران أن يتجاوزوا الصخرة"، هكذا قال إلهنا في الكتاب المقدس، فأر مسن جداً يملك رقابنا جميعًا، لم يستطع أحدٌ أن يخالف الحروف القديمة، لكن على أحدنا أن يفعل، وإن كفرَ، ولم قد يكفر؟! ممنوعٌ على الفئران، وقد قال أبي: "اتبع اسمك، نحن لسنا فئرانًا، ولن نكون" عليَّ أن أتبعَ قدري.

الطبيعة المتآمرة ضدنا لم تترك لنا وقتًا للتفكير أو للحزن على صديق أو شهيد أو حبيبة، لا تعترف عشيرتي بحقِّ تذكرِ الموتى، يعاقب من ينشغل بالذكرى عن الحربِ، وأنا لم أحب الحرب الدائرة منذ الأزل، لا أخشاها لكنني أحبّ الحكمة أكثر.

من ضد من؟ لقد قال أبي: "إن الحيوانات وبني آدم أعداء لنا" ثم تابع برعبٍ: "خاصة أبناء آدم، فاحذرهم" لا غاية للإنسان في قتلك، يقتلونك هكذا بدم باردٍ، في دلو ماء أو على نار موقدة، أسأل: "لماذا يفعلون ذلك؟".

فيقول "بلا سبب".

أرفضُ وأقول في سري: "لا بد من سر وراء اللغز".

هَأنا في طريقي صوب الإجابات، والصحراء تحرق أقدامي، أتسلقُ كثبان الرمل تارة، وتارة أخرى أخترقها كالسهم فأنفذ من أسفلها، أبتعدُ عن ظلي كثيراً، فلا أثق فيما سوايَ، وظلالنا قد تخوننا أحيانًا، أتساءل: "لماذا تسكن الإجابات المخاطرَ دومًا؟" لا

أجد الإجابة، فأعلم بأن الصحراء أمامي لا تزال ممتدة، وأرى سراب ماضيٍّ يطاردني.

جدتي – الفأر العجوز ذات الفرو الأبيض– هَأنا أتذكرها وأتحرر من قيود عشيرتي، ترتعشُ دومًا من شدة خوفها وتقول: "إنّ العالم أرض مبذورة للشر"، ولأنها أكثرنا خوفًا صارت أحكم الفئران، لقد رسمت بالطبشور الأبيض على الجدارِ المجاور لمخدعي صحراءَ وفأرًا يشبهني وإنسية، وحذرتني بعكازها من عواقبِ السفرِ، لكنني كنت أحمقَ بما يكفي لئلا أبالي.

سوادٌ .. لم أرَ غير سوادٍ، ولم أعلم كيف ذابت حبات الرمل في ماء السماء؟! ولا كيف جلست فجأة على غصن من أغصانِ الشمس؟ وماذا فعلت حين فتحت تلك الحية فمها المقزز لالتهامي؟ وربما لم أفعل شيئًا.

استسلمت لموتي وأغمي عليَّ، وربما يكون هذا هو سر السواد، أو ربما أكون داخل معدة تلك الحية الغبية، الموت يأمرني بالموتِ في هدوءٍ، لكنني لا أحب الموتَ، لا يجب أن أموت الآن عليَّ أن أتبعَ قدري، وأصحو.

وأفتح عيني فأرى ذلك اللون الأخضر الممتد، أقول: "ربما هذه هي جنة الفئران التي يحكى عنها"، وشعرتُ بأنني آمن تمامًا، لكنني لما نظرتُ إلى الناحية الأخرى رأيت بيتًا ريفيًا، عرفت البيتَ، كان موجوداً في عينَي جدتي، وعرفتُ أن هذا هو طريقي، ولم أبالِ كيف عبرت الصحراء، كنتُ أعرف أنني سأجد إجابة كل شيء في هذا

البيتِ، وتسلقت الجدار حتى النافذة، ووجدتها غير محكمة الإغلاق فاندسست بجسدي من أسفلها وعبرت، وكان البيت فارغًا وهادئًا كمقبرةٍ، وللحظة شعرت بالفزع الشديد، واشتهيت العودة، لكنني كنت أعلمُ أن البداية ستقودني إلى ذات النهاية؛ لذا انتظرت قليلاً حتى ظهرت أخيراً تلك المرأة؛ كانت عجوزًا، ولها ساقان بيضاوان، وتحمل بين يديها هرًا، لقد شم الهر رائحتي فنظرَ إليَّ، وعدوتُ أسفل تلك الأريكة وكتمتُ أنفاسي، وظل الهر يموء نحوي، وقفز من حجرِها إليَّ، وسمعتها تنادي على قطها مدللة إياه، وتعجبت لماذا تحبُ القطط وتكرهنا نحن آل الفئران؟! نحن لطفاء جداً، نستطيع أن نلعبَ أيضاً، ونعدو، ونمتن لمن يبتسم في وجوهنا.

وعرفَتِ المرأة بوجودي، وغابت لحظة قبل أن تعود وفي يدها علبة حديدية موضوع بداخلها قطعة من الجبن الرومي الشهي، وفجأة لاحت في عقلي فكرة، وبدأت أفهم سر كل شيء، وجدت رأسي الصغير جداً يتسع ليحتوي هذا الكون، أحسستُ بأنني أقرأ أفكارها، وأفهم لغتها، وجدت طريقة للتواصلِ مع بني الإنسان والقطط وباقي أعدائنا، ربما لن يصدقني أحدٌ أبداً، لكنني شعرتُ بالنبوة، أحسست بهالة النور تنزل على رأسي، سأخبرهم بالسرِّ.

كانت الشمس ناعسة جداً وفي طريقها إلى فراشِها، ألقت عليَّ بقايا أشعتها الذهبية، فامتلأت بها، وودعتني بقبلة على جبيني، الكون ملك لي، لقد خلقنا من أجل غاية عظيمة، هذه الحرب دائرة بين الجميع ولا أحد يعرف أننا أسياد هذه الأرض، وأن الأرض مسخرة

لنا، نحن معشر الفئران، ولا سوانا، علينا أن نتحدثَ مع أعدائِنا قليلاً، سيصدقوننا لو قرؤوا كتابنا المقدس، لو أنصتوا إلى إلهنا العظيم، لكن والدي لن يصدقني أبداً، سيعنفني على الهروبِ من الحربِ وينعتني بالجبن، ويعاقبني بجمعِ الطعام من صناديق القمامة، ولن يفكر قبل أن يأكل، كان عليَّ أن أعودَ، أن أنير الطريق للآخرين، لكن ليس قبل أن آخذ هذه القطعة الشهية من الجبنِ أولاً.

ملاك أسود

الأرضُ جحيمٌ معدٌ بإتقان، حفرٌ مملوءة بالحممِ وماء النار، كثبان من الظلام تهيم وتهيمن على الهواء، أفكار مدنسة ووساوس تملأ قلب ريم.

وريم كانت تمشي في الجحيم على أطرافِ أصابعها كأنها ترقص، وهي ترفع يديها للأعلى وتدور حول ذاتها في دورةٍ كاملة، لكنها تفقد التوازن فجأة، فتفتح الهاوية فمها، لقد اشتهتها النيران ولولا تلك اليد التي أمسكتها لوقعت فيها، وعندما وقعت عيناها على صاحبها فزعت وانتفضت من نومها.

أخذتها أمها في حضنها وسألتها: "ما الأمر؟".

فأجابت وهي ترتعش: "أراه!".

سألتها: "من؟".

فهمست: "لوسيفر".

وفوجئت بأمها تبتسم وتقول: "نعم يا صغيرتي، صليتُ لأجل هذا وباركتُكِ بنفسي".

فرمقتها ريم بفزعٍ قبل أن تصحو مرة أخرى من نومِها، لكنها هذه المرة ظلت تنظر إلى الحياةِ، من نافذتها بشك كبير.

كانت ترتدي الأسود عندما عادت إلى المسرح، قلبها قطعة فحم محروق، سمعت عبارات التعازي تنهال عليها وهي تمشي أمامهم، تجيبهم بإيماءة صغيرة مملوءة بالامتنان "يا لملائكيتها!" بينما يهمسون من حولِها: "يا لملائكيتها!"، بينما يهمس آخرون متقززين: "مات والدها بالأمس، واليوم تعود للمسرّح"، وسمعت همساتهم ولم تبالِ بها، من يعرفها؟ قلبها حزينٌ مثل شمعة، وجسدها بالٍ مثل رماد، لكن والدها تعب في كتابة هذه المسرحية وأحبها بعمق، لقد أخبرها في أيامه الأخيرة: "سأموت قريبًا، فهل أجد الفردوس المفقود؟"، وأخذَ نفسًا من السيجارة التي حذره الأطباء منها وقال: "الفردوس التي فقدها الإنسان والشيطان معًا في آن، فيا لنا من مساكين".

الأرضُ جحيمٌ معدٌ بإتقان، حفرٌ مملوءة بالحممِ وماء النار، كثبان من الظلام تهيم وتهيمن على الهواء، أفكار مدنسة ووساوس تملأ قلب ريم.

وهي كانت تمشي على المسرحِ بسعادةٍ، تتأمل التفاصيل الصغيرة، لقد كان لوسيفر يستند بظهره على جدارٍ، على الجدار

منقوش تاريخ جميع الهزائم، وعلى لوسيفر غبار الحروب، كان أسود اللون، كما

ـ يليق بملاك ملعون ـ وبريش ناعم، وجناحين، ولمّا دققت النظر لم يطل البقاء، ناداها صوت زميلها: "ريم .. أنا عادل" وعرفت أنها ستسمع خبرًا لن يعجبها، ولم يكذب حدسها إذ قال: "لقد غير المخرج المتغطرس النص تمامًا"، وأحست أن والدها لم يمت سوى الآن.

عَدَتْ تجاه المخرج وقبل أن تسألَ سألها: "من أنتِ؟".

فأجابت: "إحدى الملائكة".

فرد – كمن يقرأ ما في الصدور –: "إذن على الملائكة إطاعة أربابها، وأنا هنا هو ربك".

وبالرغم أن مشهد رقصتها القصير لم يبدل لكنها لم تطمئن، قررت أن تتسللَ وتعيد قراءة النص، ولمّا قرأت جزت على أسنانها وانتابها غيظ شديد، وأحست بتلك اليد السوداء تلمس ظهرها وتربتُ عليها فانتفضت، والتفتت، ولم ترَ أحدًا، لا شيطان ولا إنسان، كانت وحيدة جدًا في هذا العالم؛ لذا عَدَتْ هاربة إلى الخارجِ.

نصحتها صديقتها أن لا تترك دورها، قالت لها: "اقترب العرض، وربما ستولدين هنا"، فسلمت بالأمر، لكن المشكلة ظلت تؤرقها، وكذلك الهلاوس ظلت تطاردها، يزورها لوسيفر في أحلامها ويخرج إلى واقعها، تراه جالسًا في العماءِ بعد الملحمة الأولى، يخط على الجدارِ وينحت أسرارها، لكن الزمن يخون ويمحوها، ترمقُ "فؤاد"

الذي يقوم بدوره بازدراء، يبدو مهرجًا، لن يلبس أبدًا شخصية لوسيفر، ولوسيفر بطل ذو هيبة، بطل أسطوري، ينهضُ والأرض مقفرة وملغمة بالعتمةِ ويصيح في جندهِ المهزومين: "هيًا أيها الملاعين مثلي انهضوا" فينصاع الجميع.

وريم تفاحة حلوة، بريئة ومدنسة، ريقها عذب مثل نهر..

عندما اعترف لها عادل اليوم بما في صدره قالت بدلال طفولي: "وأنا أيضًا أحبك" وتواعدا، بالرغم أنها فعلت المثل بالأمس مع فؤاد، لكنها مع هذا لم تحس بميلٍ سوى إلى لوسيفر، لقد دخل قلبها وتسلل إليها، وتأكد لها بأن هلوساتها أقرب للواقع وأصدق، لقد همسَ في أذنها، وليس للمرأة أجمل من كلمات تُهمس في أذنِها، وليس للمرأة أجمل من وسوسةِ شيطان، لم يكن شيطانًا مخيفًا، كان محض ملاك أسود اللون، دون قرنين، وبجناحين كبيرين يحلق بهما ويحملها إلى ما شاء، لقد واعدت الجميع من أجل خطتها، ضبطت جدول مواعيدها، وجعلت الأمر سريًا، غامضًا، وخطرًا.

في المرة الأولى التي حلقا فيها قالت ريم لعاشقها: "كنتُ أخاف منكَ".

سألها: "لم؟".

فضحكت ضحكتها الطفولية وقالت: "لأنك ملعون".

ونزلا في صحراء بعيدة وقبلها في رقبتها وقال: "كل ثائر شيطان حقيقي".

وهي شعرت بجسدِها يصيح مثل الشوكولا وقالت: "أنتَ ملاك، كل ما فيك سماوي، وأنا أؤمن بك".

ودغدغ شفتاها بالقبل أكثر وقال: "كل ما في الأمر أنني فقدت لوني لا جوهري، لكن البشر مساكين، يخلقون الأكاذيب ويصدقونها".

فضحكت كثيرًا وقالت: "وأنا أصدقكَ، وأصدق ميلتون؛ لأنني لم أرَ يومًا أمنا الغولة، أو غرفة الفئران، أو السلعوة، ولم أرَ لك قرنين".

وريم تفاحة حلوة، بريئة ومدنسة، ريقها عذب مثل نهر..

ظلت على مواعدتها للجميع، بينما لم يدق قلبها سوى للوسيفر، يخرجان معًا بعد منتصف الليل ليتمشيا أسفل ضوء القمر، تخلع حذاءها، وتمشي حافية القدمين.

تضحك وتقول: "أمي لا تسمح أبدًا بهذا".

يسألها متعجبًا: "المشي حافية؟!".

فتتابع: "أقصد أن أخرج متأخرًا هكذا، العالم مكان شرير كما تعرف".

فيبتسم لها ويقول: "أكثر من يعرف يا صغيرتي!".

تسأل فجأة: "لماذا لم تكونا صديقين؟".

يسألها مندهشًا: "من؟".

فتقول ببساطة: "أنتَ وآدم، ربما لو عرفك جيدًا لفضلك عن الجميع".

ولم يعرف بماذا يرد، سكتَ قليلاً ثم تنهد قائلاً: "آه يا طفلتي الصغيرة، لقد اصطفاني الله لأفسر لآدم وجوده".

فكرت فيما قال، ثم هزت رأسها رافضة: "لكنني لا أجد المعنى".

وسكتت لحظة قبل أن تومض في عقلها فكرة وتقول: "أوه؟. أيها

الملاك الأسود، أيها القربان المقدم لنا، وأنت أيضاً لا تجد المعنى".

ارتفعت الستارة أخيراً، ولاح من ورائها مَلَكٌ - ريم ترقص في ملكوت سماوي- تدور على قدم واحدة، حول ذاتها، أسفل أقدامها يجلس الربُّ يراقبها، تعلو صوت الموسيقى وتتصاعد بينما ريم تقفز للأعلى، تقفز مثل بجعة سعيدة، تفتح أقدامها عن آخرها وتقفز، والمخرج يراقبها ولا يبالي بما يدور في نفسها، وحدة الأجزاء فقط هي الأهم، لعبة بازل هي الحياة، قطع مشتتة لا رابط بينها، كل قطعة لها حكايتها وفرادتها، والربّ لا يبالي.

تهدأ الموسيقى فجأة، وتميل إلى نغم حزين، تجلس ريم على الأرض، وتشير إلى صدرها، تنكمش حول نفسها وهي ترقص، يتعجب الربّ مما يحدث، انهزم لوسيفر وثواره، وصار العرش السماوي آمناً، فلماذا هذه الملاك تحزن؟!

تنهض فجأة، تعلو صوت الموسيقى، يتسلط الضوء عليها من بين جميع الملائكة، تجري.. تقفز.. تهتز السماء على صوت دقات قلبها، ها هي طبول الحرب، تجري.. تقفز.. تفتح باب السماء، فيدلف منها لوسيفر وثواره.. ملاك أسود اللون وملعون.

يشعر الرب بالفزع ويصرخ: "ماذا تفعلين؟".

يمتلئ المسرح بالشياطين، والملائكة، والبشر.

كل ما يبغاه الجميع هو .. القليل من الرقصِ.

غرفة الفئران

كان يجلسُ في مقعدٍ حجري، أخرجَ رواية إنجليزية للبائسِ تشارلز ديكنز وادعى قراءتها، أمام المقعد كانت توجد نافورة كبيرة على هيئة كيوبيد الصغير الشرير، في تلك الحديقة الدائرية، والتي لها ورود حمراء كثيرة.

غريب الأطوار، عشريني، ويعاني من بداياتِ بعض الأمراض مثل: الفوبيا، الانطوائية، ونوبات رعب، يريدُ الهروبَ بعيداً من خلال الذوبان في هذا العالم القذر.

كانت تجلسُ عند النافورة بصحبة أختها الصغيرة ريم، كعادتهما كل يومٍ بدأا يأكلان الأيس كريم الذي اشترياه من العربة الصغيرة الواقفة أمام حضانة ريم.

هي فتاة حالمة عمرها سبعة عشر عاماً، تحبُ الأيس كريم، وأختها ريم، واللعب بأرجوحة الحديقة، تتحججُ دوماً باصطحاب ريم

من الحضانةِ ليلهوا، تحبُ أيضًا قراءة قصص هاري بوتر، ومتابعة مسلسل مهند ونور كانت تتعمد الذوبان في الوهمِ حتى لا يغافلها هذا الواقع المخادع.

وكنتُ أجلسُ عند أرجوحة الحديقةِ، الأطفال يلهون من حولي ويركلون كرة القدم، بينما تطاردُ الطفلات الفراشات، أرتدي نظارة شمس سوداء سميكة وأبدو غامضًا بشعري الفاحم المنكوش، أمسكُ بدفترٍ أزرق وأدونُ بعض الملاحظات الهامة، أنا كاتب هذه القصة، عمري أربعة وعشرون عامًا، سأصيرُ يومًا أديبًا عظيمًا، أحبُ مراقبة الغرباء في الحدائقِ العامة، والتلصص على أسرارهم الصغيرة، وربط التفاصيل ببعضٍ حتى أنسج بخيوطِها قصة قصيرة.

(هذان المذعوران كانا بطلي قصتي، والمذعورون والمذعورون ..)

نهضَ الشابُ البائس من مقعده الحجري، أغلقَ الرواية التي لم يقرأها، وقررَ التجولَ أخيرًا، شعرتُ بالتفاؤل، مرّ أمام الفتاة الحالمة لكنها لم تره، وهو لم يرها أيضًا، كانت منشغلة في عالمِها الوهمي، تقرأ بعض أخبار معشوقها مهند، وتقصُّ صور هاري بوتر بينما كان هو منشغلاً عنها في تأمل طين الأرض والحشرات الصغيرة.

(هذان المملان هما بطلا قصتي، وهذا السكون)

جلسَ الشابُ البائس بجواري على الأرضِ، أخرجَ الرواية مرة أخرى من أجلِ أن يتحاشى نظراتي الوقحة، لم أقصد التطفل بهذا الشكل، كنتُ شاردًا أبحثُ عن حيلة لدفعِ الحدث إلى الأمامِ ووجدتها، على الشابِ أن يجلسَ الآن في هذه الأرجوحة، بعد دقيقة

واحدة ستنهضُ الفتاة مع أختِها للتأرجح، ثم يجدان هذا الشخص النحيل، فيضطران للاستئذان بأدبٍ ولطف قائلتين: "من فضلك، هلا تترك لنا أرجوحتنا". وهكذا يبدأ الحديثُ بينهما، ستكون صدفة عبثية نادرة، ولن يدركَ أحدٌ أن وراءها شخص عابث مثلي وخبيث.

(هذا البطل الأحمق - أنا - لا يملكُ قوة ولا حولاً)

كنتُ أكتبُ "انهضْ..انهضْ"، فلا ينهض هذا الشخص الأهمد، وكنتُ أفكر في طريقة تجعلُ هذا الشاب يفعلُ ما أريدُ، كان أمامي خياران:

الأول: هو أن أعنف هذا الشاب وأجبره على النهوض من جواري.

سأقول: "رائحتك عفنة، انهضْ واجلسْ هناك"، قد يخالف ويجري بعيدًا وقد يرضخ، هي مغامرة.

والخيار الثاني: هو أن أخبره "هذه الفتاة معجبة بك، أخبرَتني بهذا من قبل"، فيصير الشاب فجأة دمية ماريونيت بين يدي، وهذا خيار ساذج، لكن الخياران تبخرا فجأة عندما رأيتُ الشابَ ينهضُ ويبتعد عني، ورأيتُ أيضًا كالنائمِ هذه الفتاة الحالمة قادمة نحوي، ولم أعرف ماذا أفعل، خطتي ستفشل، ووجدتني فجأة أقفزُ في أرجوحتها، كأن هناك يد عابثة وخفية تحركني.

(من السهلِ، أن تصيرَ بطلاً، أنا.. أنا لا أحبُّ هذا)

توقفت الفتاة الحالمة أمامي، وتعجبتْ عندما وجدتني أقفزُ في أرجوحتِها، وضحكتْ كثيرًا، قالت لي: "من فضلكِ، هلا تترك لنا أرجوحتنا" وابتسمت بلطفٍ.

نظرت إليها متعجبًا ووجدتني- كدمية مقيد فكها بالحبال- أقول: "كم من المال ستدفعان؟" مزحة سخيفة، كيف أنطقُ بمثلها؟ لكنها أضحكتهما.

وقالت الفتاة: "أرجوكَ .. من أجل ريم".

فابتسمتُ وقلتُ لها: "فقط من أجلِ ريم" وغمزتُ بعيني، فضحكت الفتاة.

تركتُ الأرجوحة لهما ومزقتُ الحبل الذي قد قيدني، جلستُ أسفل الشجرة وأمسكت قلمي، لكن تلك الفتاة اللعينة كانت تراقبني، وتضحكُ لي.

(من الصعب أن تكون إلهًا!)

هذه مشكلة كبرى صنعتُها بغير قصد، ضاعت الخيوط من يدي، حاصرت جسدي، بطلي المسكين يجلسُ هناك في الركنِ وحيداً ويائسًا، وبطلتي الجميلة وقعتْ في عشقِ مؤلفها.. خالقها، لم أقصد الوصولَ بالحدثِ إلى هذه النقطة، جلستْ على الأرجوحة في لحظة ارتجال حمقاء، جلستْ فقط كي أخبرها أنها محجوزة لهذا الشاب هناك، لكنني لم أنطقْ، سكت، خانني صوتي.. قلمي، لم أفعلْ ما أريدُ، لم أنطقْ: "كنْ" فقدتُ جوهري، صرتُ عاديًا، محض دمية. هَأنا أسيرُ معها، وأمسكُ بيدها، هي سعيدة، وأنا تعيس، أريدُ استعادة زمام الفعل، الخَلق، الزمان، الروح، قبل أن تقتلني حروف النهاية الثلاثة، تلك الكلمة اللعينة تمت، أي.. موت.

لعنة كيوبيد

للشتاء سحرٌ أعرفه ويعرفني، تربطنا سويًا صداقة بعض التفاصيل: معطفي وسجائري وقداحتي، معطفها وكوفيتها ومظلتها السوداء، الشوارع المبتلة بالمطرِ أو الدموع، الأرصفة التي يخترق برودتها أحذية المارة، أغمدة الإنارة، أضواء السيارات المسرعة، ضوء القمر الخافت، والمقاهي التي يغيب عنها الناس فتفتقدهم.

صوت فيروز ينشدُ في الليلِ وإسكندرية تمطر للجميعِ حكايات مع المطر، أرواح المارة تخبرني بهذا، الرجال يعدون متعجلين للعودة إلى دفء بيوتهم ونسائهم، الأطفال لا يخشون البلل أو الفرح؛ لذا يلهون أسفلها، يقفزون ويغنون، أغنيات المطر تتردد في الزوايا: "يا مطرة رُخّي رُخّي" و"العنكبوت النونو".

وأسير مع فتاتي أسفل مظلتها، المطر ينهمرُ من جانبيها وهي تمسكُ بيدي، تتجنب النظر في عينيَّ، تخشى أن أقرأ فيهما العشق، فتطارد الأطفال والمقاهي والسيارات وتهرب بعيداً، لكنني أضبطها مرة وهي تتلصص النظر إليَّ بطرفِ عينها، ومرة أخرى وهي تشير إلى شيء بعيدٍ حتى أراه وما أن أفعل حتى تسرع لتتأمل تفاصيل أخرى.

من المرهق عشق فتاة مثلها، لم تقل لك بكلمة حب واحدة، ترى الأقدار تحارب قصتك فتتركك وتصعد قصرها العالي، لا تحارب معك، لا تقل: "عد لأجلي حيًّا أو ميتًا.. لكن عد"، وإنما تنتظر أن تنجح وحدك، كأي فارس محترم، وإن عجزت فأنت لا تستحقها ولا تليق بها، ولن تحزن عليك أو ترثيك في قصيدة، ستظل جالسة في غرفتها تنتظر فارساً جديداً أعظم منك، يستحق أن تفك له ضفائرها، ولن تتذكرك مرة ولن تبكيك أبداً.

سألت نفسي كثيراً: "لماذا أعشقها كل هذا العشق، ولم أذق سكراً من شفتيها ولا شهداً في كلامِها؟! وما أن ألمس صدري حتى أتحسس الإجابة فوراً، هذا الجرح الممتد، كيوبيد اللعين أصابني في مقتلِ ولم يشفق عليَّ، وهي إلى اليوم تلقيني كل يومٍ بألف سهم من رموشها، رموشها التي تحرس عينيها مثل حصن.

أقول لنفسي: "هي خجولة كفراشة"، تنام على كفكِ ولما تحس بها تطير، حين أخبرها أنني أهيم بها تجيب بـ: "أعرف"، ولَمّا أخبرها أنها تهيم بي تقول: "لا!"، وعندما دخلت بيتها، ورفضني أهلها

انتظرت منها أن تقول: "ستحارب لأجلي وستنتصر"، لكنها لم تقل كلمة واحدة، كبرياؤها كفتاة شرقية يقتلني ألا يكفي معاندة القدر لنا؟

ولماذا يعاندني القدر؟ لأنني البشري الوحيد الذي وجد السعادة، وللبشر حظ عظيم من التعاسة، سرقتُ شعلة النار من جبل الأوليمب، لكنني لو أعطيتها لسواي أتعس، ولو ملكتها وحدي ستعذبني الآلهة ولن ترحمني، سيقيدونني في جبل بعيد عن العالم، وسيأتي طائر الفراق الأسطوري كي يأكل كبدي كل ليل، فينبت مجدداً في النهارِ، ويستمر العذاب الأبدي، ولن تأتي لتخلصني أبداً بكلمة صغيرة وهي: "أنا لكَ".

واليوم فاجأتني تماماً لَمّا قابلتها، قالت: "سنتزوج سراً".

فأجبت سريعاً: "سآتي بمأذون وشاهدين".

لكنها قالت: "لا داع، سيشهد علينا الملائكة والشياطين على السواء".

اشعلت فكرتها شعلة النار ولم أفكر، أخذتها في طريقنا للبيتِ، سنمارس الحب، ستبارك جسدي، وستدخلني الفردوس، وسأخرج لساني للقدرِ ساخراً، لم نبالِ بما سيفعل بنا أهلها، صادقٌ في عشقي لها، صادقةٌ في عشقي، وكان هذا يكفي.

فراشةٌ متمردة ولا تخشَ النار، في صدري شعلة موقدة وملعونة من السماءِ فتعالي إليَّ.

أقول لها فجأة: "أنت عاشقة؟"

فتقول بكبرياء: "لا".

فأضحكُ وتضحك، تعشقني وإن كفرت بي بلسانها، هكذا كنت أفكر ونحن نصعد الدرج، أفتح باب البيت وندلف، تتجول بحرية وهي ترقص على أطراف أصابعها، أدخلها إلى غرفة النوم، وأترك أناملها تنساب من يدي، تخلع معطفها وتدور مع موسيقى تسمعها بداخلها.

أقول لها: "سآخذ شاور قصير وآتيكِ".

فتقول لي وهي تغمز بعينها "وأنا سأرتدي لكَ شيئًا مميزًا".

أتخيلها تحت الدش وهي ترتدي بيبي دول أبيض قصيرًا، أو ربما لانجري، وربما ترتدي قميصًا من دولابي فقط قميصًا ولا شيء آخر.

سأقول لها: "أحبكِ" وأقبلها.

وتقول لي: "أحبك" وتقبلني.

تغمض عينيها السوداوين الجميلتين، وأذوب في شفتيها.

تقول: "احرقني .. أنا فراشتك الصغيرة"، وتتأوه وأنا أقبلها في شفتيها ورقبتها ونهديها.

ستخبرني: "كم حلمت بهذه الليلة!" وسأنصت لها، وحين تنتهي أضمها إلى صدري، وأعلمها لغة جديدة، سنضيع بعيدًا عن قيود هذا العالم؛ لأننا سنصل إلى ملكوتنا السري.

لم أحس بالألمِ ولم تختلف الدنيا كثيرًا، لكنني - فقط - شعرتُ بالبردِ بعدما تهاوى جسدي مني، أستطيع الآن أن أرى ما وراء الجدران، أراها وهي مستلقية فوق الفراش ترتدي فقط قميصًا أبيضَ من دولابي، أبتسم بألم وأقول: "كنتُ أعرف هذا".

يمر الوقت عليها وتشعر ببعض الملل، لكنها لا تبرح مكانها، تتساءل في سرِّها عن سر تأخري، لكنها لا تنهض لتطرق الباب عليَّ، تمر دقيقة تلو دقائق أُخر، تحس بثقلها ويزداد ثقلها على روحها بينما أنا هناك لا أشعر بالزمن، أتوحد مع الكون، وأشعر بي أعرج - كروحٍ مقيدة- إلى السماءِ.

هذه ليلة مختلفة، شعرت بهذا من منذ اللحظة الأولى، والنهاية لم تكن كما أردت، ولكن كما تنبأت بها، ها هي حبيبتي تنهض عن الفراشِ، ترتدي ملابسها ومعطفها الأسود، تتأفف وتلعن غيابي، خلعت معطفها وحياءها، لكنها لم تخلع كبرياءها، لم تطرق باب حمامي، لم تستعجلني، لم تعلم بأنني ميتٌ بالداخلِ، لم تلقِ عليَّ نظرة وداع أخيرة، لم تصرخ: "انهض ولا تمت" لم تعلم بأن القدر قبض روحي كي تموت الحكاية ولا تكتمل، كي أتفهم وأقبل ضعفي البشري، وحتى تنطفئ شعلة النار التي سرقتها وتبتل، لكنها ستعرف فيما بعد، وربما لن تبكي عليَّ، ربما لن ترثيني في قصيدة، ربما لن تتذكرني في الشتاء ولا عند المطر.

مصيدة الفراشات

أراكَ تقتربُ منبهرًا بضوء عينيها يشدك إليها، تراها وهي تمتلك ذلك الجمال الأسطوري القديم، كأنها خرجت للتو من إحدى حواديت جدتك، يمتلكك جمالها ويقبض على فؤادك يعصرك عصرًا، تشعر أنك تستنشق بها الهواء النقي الذي يأتيك من الشرق حيث الحقول الخضراء والساقية الكبيرة.

خلف الحقول تجلس الشمس لتستريح، تتذكر حينما كنتما تطاردان - أنت وليلى- الفراشات، وحتى تغيب الشمس، وحتى تجريان والظلام يطاردكما لتختبئا في بيتكِ القديم.

أراكَ تحاول جمع بلورة الماضي المنثورة على الأرضِ، تجمع تفاصيلك الصغيرة البالية المبللة، تنتظر ضحكتها حتى تذكرك بزرقة صديقك النيل، كنت تجلس على الضفة وتلقي بأسرارك الصغيرة في

بئره العميقة، كنت موقنًا ساعتها أن النيل سيحفظ سرك، لن يخونك أبدًا، لكنك كنت صغيرًا ساذجًا جدًا، تجري.. تلهو.. تسابق الموج.. وتنسى الحقائق.

تستمر في السير قدمًا، تريد الإمساك بها بعناد طفل، يداك ممدودتان أمامك، وفوق عينيك منديلها البنفسجي، وفي أنفكَ لا تزال تسكن رائحة التوت والموت؟ تدور حول نفسك في دوائر متقاطعة، ترقصُ رقصةً صافية خالصة، تتوقف حين تتعب لالتقاط أنفاسك، تخشى أن تكون محض طيف، ترفع عن عينيك غشاوتها وتفكر.

تقول: "ربما أحببتها حد فنائك فيها أو حد خلودها فيك!"

تشك في إجابتك.

تتساءل: "ماذا تعرف أنت عن الحبِّ؟".

تسمع صوت أبيك الشيخ :"الحب هو من اختار اسمك وقدرك".

ثم يصمت وينشغل عنك في التسبيح وذكر الله.

لكنك لم تشعر قط بعميق الحب لاسمك.

تقول: "ربما كذب والدي الشيخ".

تستغفر الله مما تقول، لكن استغفارك لا يطفئ غضبك، الغضب الذي كاد يقتلك حين اختفى والدك فجأة من البيت، يومها استيقظت على نوح كئيب، فتحت عينيك فهاجم الظلام روحك، لم ترَ شيئًا، كنت سكرانَ بليلى وحلمها.

تساءلت: "أين الشيخ؟"

فلم يجبك أحد، ولم تعرف كيف تحول الحلم إلى كابوس؟ ولم تدرك حينها– أيها المسكين – أنك فقط عدت إلى الواقع.

يومها هل أشرقت الشمس؟ أو هل رأيتَ الفراشات؟

نسيت موعدك مع ليلى عند النيل، أخذتكم الكارثة الأولى حتى أسكرتكم، ولمّا علمت سر اختفاء الشيخ قلت "كيف؟ وهو الذي أحبَّ ناصر حد الجنون، فكيف يعتقل؟ كيف؟".

شعرت أن الجميع ينظرون إليك بغضب، وتمنيت أن تتعرى من اسمك فتمضي عاريًا في شوارع البلدة، لكن كيف نتعرى من أقدارنا؟ وكيف يفعل ناصر هذا؟ كيف؟

هذا هو الحبُّ الذي أخبرك به الشيخ، وكان مؤمنًا بما يقول، حتى بعدما عاد إلى البيت مريضًا بالرعاش ظل مؤمنًا بمصر، وناصر، والعروبة، والأحلام، لم يضعف المرض أو السجن قلب الشيخ.

وقلتم: "عاد أبينا".

مريض لكن عاد، يكفي أن عاد، فلم تمضِ أيامٌ حتى مات.

هل شعرت بموت الشيخ؟

هل قبلت جبين الشيخ؟

بالطبعِ لم تشعر بموت أبيك، كنت لا تزال هائمًا في تيهك الأزلي، لا تزال صورة ليلى عالقة أمام عينيك.

تقول: "كيف؟"

تصرخ.. تصيح.. تستغيث.. لكنها الحقيقة.

ترى جثتها الزرقاء فتسأل: "كيف تحول جمالها إلى هذا القبح؟".

انتفخ وجهها وتحول بياضها إلى الأزرق.

قلت ببساطة: "هذه ليست ليلى".

أنكرتها وتبرأت منها مثلما الحياة فعلت، فما أقساك!

حاولوا أن يقنعوك بأنها غرقت في النيل فصعبوا الأمر.

قلت: "كيف يخونني النيل ويقتلها؟"

وتذكرت أنها كانت تنتظر يومها، فلمت أبيك على الغياب، ولت ناصر على القهر، ولت كل شيء، كل شيء تآمر ضدك حتى اسمك، فكيف تتعجب حين لم ترَ الفراشات يومها؟ وهل كانت تظهر سوى لليلى؟

واليوم أراك تقف على بعد خطوتين منها، تتأمل جمالها وضوء عينيها، ترى فيها ملامح ليلى فتيقن أنك تعشقها، بكل ذرة في طفولتك تعشقها.

لا، ابتعد يا جمال، ابتعد أكثر، اهرب يا جمال، اهرب أكثر، حاول أن تبصر، استيقظ.

أمنا الغولة

أجلسُ في دارها، أراقبها مثلما تراقبني، الدار مكونة من ثلاثة طوابق، وهي ترتدي بردة سوداء وتدعي أنها أمي، لم أستطع تكذيبها؛ لأنها تنظر إليّ ببرود، حاولتُ المقارنة بين ملامحها وملامح الصورة الباهتة التي تسكن ذاكرتي فأفشل في إيجاد صلة، تكرمش وجهها ويداها، وجفناها تدليا على عينيها، عيناها خضراوان مثل الحقول الخضراء الشاسعة الممتدة أمام بيتنا، لكنها أغمق لونًا اليوم كأن ملائكة الموت تحلق في سمائِها.

أخبرتني تلك المرأة بأشياء عديدة عما سيحدث: سأقابل إخوتي، سينظرون إليّ نظرات سيئة، مثل أهل القرية؛ لأنني غريب، لن يتذكرني أبناء عمومتي، ويجب عليّ أن أتذكرهم أو أدعي ذلك، أخبرتني أيضًا بأسماء إخوتي جميعًا وأعمارهم، وحفظتني بعض

الإجابات .. كيف هربت من الدار؟ ولم؟ بدت لي الإجابات متناقضة لكنني حفظتها على أية حال، أمي داهية، لا بد أنها تخطط لشيء عظيم، لكنها لا تعاملني كابن لها تقول: "تعال أيها الغريب"، وعندما أجيء لا تحكي لي عما حدث في الماضي.

خمسة عشر عامًا مرت بعد هروبي من الدار، فكيف استطاعت العيش مع ظلم أبي؟ وكيف تحملت غيابي؟ كنت ابنها الوحيد، البكر، فمتى انجبت كأرنبة كل هذا العدد؟ لم تخبرني أيضًا كيف وصلت إليَّ في القاهرة بهذه السرعة؟ ولماذا لم تفعل ذلك من قبل؟ وأمام كل هذه الأسئلة نسيت أن أسألها: "كيف مات أبي؟"، وشعرت بأن وراء موت أبي يداها ولعناتها.

لم يخبرني الصغير كذلك بشيءٍ، تقابلنا على الطريق وقام بإرشادي إلى الدارِ، كان يمتطي حماره عندما قابلني، نظرَ إليَّ طويلاً وضحك من ملابسي- البنطال والقميص- وضحكتُ بدوري من حمارِه الغبي، سألني من أكون؟ وماذا أريد؟ فادعيتُ بأنني أحمل رسالة للشيخ يوسف، لم أقل بأن الشيخ أبي، كنت أذكر عادة القرية مع الغرباء؛ إذ تبغضهم ولا ترحب سوى بأهلِها، لم أقل للصغير: "أنا ولد الشيخ يوسف"، لو فعلت ذلك سأجلب لأهلي العار، سيسخر من محاولتي لتقليد لهجتهم، سألني الصغير فجأة إن كنت أريد امتطاء الحمار، لكنني أجبت بالنفي وعدت إلى شرودي، كنت أنظر إلى سلسلة البيوت الطينية المتلاصقة، والحقول الشاسعة من حولها، عندما نعتني الصغير بالجبنِ، ثم قال بأن هذا الحيوان يدعى حمار، وأن الحمير كائنات لطيفة ولا تعض.

قلت: "أعرفُ ما هو الحمار".

فسألني متعجبًا: "هل هناك حمير تعيش عندكم في مصر؟".

حاولت التجاهل فلم أستطع، ضحكتُ كثيرًا.

أرشدني الصغير إلى داري فشعرتُ بالغربةِ، من المؤلم أن يرشدك غريب إلى دارك، والموجع أكثر أن تعرف صدفة أن هذا الغريب هو أخوك، عرفتُ هذا لما طلب الصغير الرسالة التي أحملها للشيخ لكنني رفضتُ وقلت: "لن أعطيها سوى لآل الشيخ"، فنظرَ الصغير إليَّ بقرف ثم طرق الباب، ثم دلف، ثم التفت إليَّ بازدراء وقال: "الآن أعطيها لي".

رأيت ذلك الصغير يتلصص عليَّ وأنا جالس مع تلك المرأة التي تدعي أنها أمي، سألتها: "ماذا يعرف إخوتي عني؟".

فأجابت: "لا شيء".

كانت طريقتها في الكلامِ سهلة ومفهومة، تحاول تقليد لهجة آل القاهرة، سعدتُ أنني أستطيع فهمها عكس آل القرية لكنها وبختني على لهجتي وطلبت مني التحدث مثلهم في العزاءِ، ثم قالت بعد ذلك أنها تحب لهجتي الجديدة، تعجبتُ منها، ورأيتها تبتسم كطفلة وتقول: "احكِ لي قصة عن مصر".

رأيت تلك الشحاذة العجوز وهي تعبر الشارع، أمسكت ذراعي وقالت: "ساعدني في العبور"، كانت الإشارة حمراء والسيارات متوقفة، ومع ذلك قررت مساعدتها، أمسكت يدها المتعرقة، وتشبثت بي جيداً، كنتُ أفكر ساعتها في سر وفاة والدي، خمنتُ السبب بأنها

طلقة نارية أو ذئب مسعور، شتمتني العجوز عندما صعدنا الرصيف، تركت يدها وابتعدت عني بذعرٍ، لم أعرف لماذا فعلت هذا؟ تأملتها عرجة قدمها اليسرى وظهرها المحني ومؤخرتها الكبيرة، وذكرتني بأمي، وعندما أخبرتُ أمي بهذه القصة شتمتني أيضًا، وشتمت العجوز، وشتمت قصتي، ومصر التي أسكنها.

لم أتوقع موت والدي، توقعت أن تموت أمي أولاً، كانت مسكينة بلا حول أو قوة، فقيرة المال والجمال، قليلة الحيلة، محاصرة بين ثلاث زوجات جبارات ومتآمرات، ليس بسبب واضح، سوى أن جميع الزوجات الجديدات يخشين المرأة الأولى، وأمي لم تفكر بالانتقام، وحده الموت سكن بالها وقلبها.

كنتُ أسمعها عندما تأخذني في حضنها: "يا رب .. خدني حِداك"، فأنكمشُ بداخلها، أريد الرحيل معها، لم تكن قد انجبت سوايَ، الآن عندها العديد من الأبناء، لم أعرف ابن من ذلك الصغير الذي يراقبني؟ ولم أعرف لماذا لم أرَ في الدار سوى أمي؟ أين أبناء يوسف؟ وما سر وفاة الشيخ؟

وقفتُ في العزاءِ مع إخوتي، كان شكلنا مضحكًا، لم أخبرهم بهذا لأنني لا أثق في روحهم الفكاهية، خاصة والحزن يبدو جليًا عليهم، لم أشعر بالراحة في جلباب أبي، وتلك العباءة الثقيلة فوق كتفي، كان للشيخ رائحة لم تمت بعد، شعرتُ بالقرفِ، تضايقتُ بسبب كثرة الناس الذين يصافحوننا، أصابع يدي أوجعتني، نظرتُ إلى أيدي إخوتي فوجدتها في خير حال، نظرتُ إليهم فوجدتهم

صامتين كتماثيل من رخام، شواربهم يقف عليها الصقر، حتى أصغرهم كان يمتلكُ خيطًا أصفر قذرًا فوق الشفتين، وحدي كان شاربي حليقًا كامرأة تتزين إلى زوجها.

توقف المقرئ عن تلاوة القرآن فرحل الناس، حاولتُ إخفاء يدي لكنهم عثروا عليها وصافحوني، ضغطوا عليها بقوة ورحلوا، فرحت برحيلهم لكن جاء غيرهم آخرون صافحوني بقوة.

سألت إخوتي: "كيف مات أبي؟"

فنظروا إليّ بكُره ولم يجيبوا.

قالوا فقط بأن أبي كتب كل شيء باسم أمي، كل شيء: الدار، الأرض، المعصرة، المرأة التي كان يضربها ويدعوها بالبقرة العوراء كتب كل ما يملك باسمها ثم مات، سألتهم "لماذا فعل ذلك؟" فلم يردوا.

فرحتُ لما رأيت أمي، أردت أن أحتضنها ما أن رأيتها، لكنها نظرت من نافذة الدار، كانت الأشجار كثيفة وعلى أغصانها بعض البوم، كانت القرية تبدو مثل مسرح، والليل ستار بالٍ، كل شيء تحولَ فجأة إلى نكتةٍ، ربما يخرج أبي بعد قليل من القبرِ ويضربني بالسوط مثلما كان يفعل، أمي أيضًا تبدو غريبة جداً، تنظرُ إليّ بعينيها الخضراوين الغاضبتين ولا تتحدث معي، قابلتني في المندرة مثل الأغراب، قلتُ: "ربما لأن إخوتي هنا" لكنني رأيتهم يتسابقون على يدها لتقبيلها، حاولتُ أن أفعل مثلهم لكنها سحبت يدها بسرعة وقالت بأنني ليس عليّ أن أفعل ذلك، قلتُ في سري: "لأنني ابنها

البكر"، لكنني سمعتها تقول أشياء أخرى لم أفهمها، عادت للتحدث بلهجة القرية، سليتُ نفسي بالفرجة على المندرة؛ المرآة الكبيرة الذهبية المعلقة على الحائط، والصالون الذهبي الفخم.

فرِحتُ أنني عدت إلى الدارِ رغم كل شيء، بعيدًا عن زحام وكالة البلح، والغرفة الحقيرة التي أعيش فيها، قاطع إخوتي أفكاري وقالوا بأنهم لا يزالون ينتظرون، سألتهم: ينتظرون ماذا؟ فقالوا بأن أنفذ ما قالت أمي، "وماذا قالت أمي؟"، سألتهم، فأعادت قولها بلهجة قاهرية: "قف أسفل النجفة"، هززتُ رأسي أن نعم أمرك يا أمي، وقفتُ هناك وانتظرت، ونظرتُ في ضوئها كما أمرت، ثم وجدتهم لا يزالون ينتظرون، سألتهم: "ما الأمر؟" فضحكوا وقالوا بأنهم كانوا يمزحون، سألتهم إن كان يمكنني تقبيل يد أمي الآن فأجابوا بالنفي.

هذه المرة طلبوا طلبًا غريبًا، لم أخطئ السمع، قالوا: "اخلع جلبابك"، فضحكت، أخبرتهم بأنني سأفعل ذلك إن فعلوا، وضحكت، لكنهم لم يضحكوا، ربما منعهم موت أبي، أخبرتهم بأنهم لن يخدعونني مرة أخرى بمزاحِهم لكنهم بدوا جادين، وقالوا غاضبين: "أنت غريب لا تفهم مزاحنا من جدّنا"، فشعرتُ بالحرجِ وبدأت أتعرى، لكن أمي صرخت صرخة مكتومة، وأزاحني أخي الأكبر إلى حجرة قريبة، وقال أنني غبي جدًا وأحمق.

عندما خرجتُ من الحجرة فهمتُ أنني شخص غير مرغوب بوجوده هنا، فكرتُ أنهم اتفقوا جميعًا على قتلِ والدي، شعرت بالشفقة على حال الشيخ، أشمُ رائحة جريمة في هذه الدار، لماذا لم

أرَ زوجات أبي؟ ربما قتلوهنَّ أيضًا، تعجبتُ كيف سيطرت أمي على قلوب إخوتي، وهي التي كانت تخشاهم طوال حياتها؟، فعلمتُ أن بداية القصة قد فاتتني.

قبل الرحيل، طلبتُ من إخوتي الحديث مع أمي وحدنا، لكنهم تعجبوا من جرأتي ووقاحتي، وأخبروني بأن هذه المرأة لا يجمعني بها شيء بعد اليوم، لم أصدق، لكنها أكدت لي ما سمعت بأذني، وقالت بأنني ملعون؛ لأنني أكره أبي، ثم طردتني من الدارِ.

عدتُ من نفس الطريق، البيوت الطينية تمتدُ في سلسلة والحقول من حولها، والشارع ملتوٍ مثل ثعبان، دعيتُ كثيرًا لأبي بالرحمة، فوجئت بأن الناس يطلقون على شارعنا، شارع الشيخ يوسف، ويحكون عن بعض كرامات أبي.

جلستُ على سور طيني نصف مهدم أنتظرُ سيارة، على الطريق السريع، لتعيدني إلى مصر، أردتُ شراء زجاجة خمر ما أن أعود، هذه العادة التي ورثتها من أبي، كيف صار أبي وليًا؟ لكنني لم أهتم كثيرًا بهذه النقطة، شعرتُ بالصداع والإرهاق والكثير من الملل، تأخرت السيارة، سمعت نداء أحدهم عليّ.

التفتُ فإذا به أخي الصغير يهرول ناحيتي، تفاءلت بخبرٍ سار، ربما لم تطردني أمي، ربما لم تكرهني مثلما أبدت لي، ربما لن تحرمني ميراثي، ربما كل شيء هنا محض مزحة لم أفهمها. وقف الصغير أمامي وتأمل وجهي على ضوء الفجر، ثم سألني عن اسمي فلم أرد، قال: "أنت داري أنا مين؟ أنا خوك"، قال ذلك كمن يخبرني

بمعلومةٍ أجهلها، وقبل أن أقولَ شيئًا سألني: لماذا أكرههم هكذا؟ ثم بكى في حضني، ثم هرول بعيدًا دون أن ينظرَ إليَّ.

حزن النخيل

أنا نبي هذا العصر البائس، أعرفُ جيدًا دوري في الحياةِ، توجدُ أصنام كثيرة في هذا العالم، عليَّ أن أجدها وأحطمها جميعًا بفأسي، تثقلني الرسالة الموشومة على ظهري، قال أبي: "سميتك إبراهيم فامسك هذا الفأس ولا تجعلني الوثن الأكبر".

هَأنا أمشي اليوم في شوارع القاهرة، أجلسُ أسفل أقدام عبدالمنعم رياض قليلاً لأستريح، أتأملُ هذا الوثن وأسأل: "من كان يقصد يا ترى؟"، فيتكبر ذلك الوثن، بالصمت والخلودِ على الردِ عليَّ.

أتذكرُ شاهد أبي الرخامي، الاسم منقوش بخطٍ كوفي "هنا يرقد رجل تسلق النخيل والجبال" يقف شاهد أبي شامخًا عكس بقية القبور الأخرى الذليلة والمنتكسة، ينام بداخلها موتى مجهولو الهوية،

لا يذكرهم أحد أو يبكيهم، كنتُ أجلسُ دومًا أمام القبرِ، بعد صلاة الجمعة، ممسكًا بمصحفي الأزرق الصغير، أتلو آيات القرآن التي تحكي عن الفردوس، أما آيات الجحيم فأتجاوزها كأنها لم تنزل، أحس بالفردوس وهي تقترب من قبر أبي حتى أشم أنهارها وفواكهها، تسكنُ الفردوس أنفي، فأعود أقرأ القرآن بإيمان أكبر، وقبل غروب الشمس أعود إلى البيتِ، تعنفني عمتي على خروجي سرًا، تضربني بيدها الضخمة وهي تلعن الشياطين التي تحركني بحبالٍ لا أراها، ولا تتركني حتى أبكي، ولّما أبكي تطمئن، تقول أن الدموع تطهرنا، فأشكُ لأنني ألعنها في سري، لا تتركني غاضبًا، تجلسني بجوارها أمام الطبلية وتعطيني الخبز الشمسي، تطعمني بيدها كأنها لم تضربني بها منذ قليل.

وفي المساء تجلس بجواري في الفراشِ تحكي لي الكثير مما أجهل، تقول أن المقابر تسكنها أروح شريرة رفضت إطاعة الملائكة والرحيل معها إلى العالم الآخر، أفرح لمّا أسمع ذلك، وأرجو الله كثيرًا أن يكون أبي من تلك الأرواح، وتحكي لي أيضًا عن أبنائها الصغار الذين ماتوا بأمراض عديدة قبل مجيئي، وتهمس لي بأن الموت رحيم، لكنها مع ذلك تخبرني: "أنا سعيدة لأنك لم تمت بعد"، وترفض أن تتركني أنام قبل أن تطمئن تمامًا أنني غفرت لها، أقول لها: "غفرتُ لكِ"، وقلبي يلعنها، تطمئن وتقول: "كنت أضرب الشياطين العالقة في جسدك"، فأصدقها.

بنظرة أخيرة تودعني قبل أن تغلق عليَّ الباب، لكنني لا أنام، تظل عيناي مستيقظتين كعيني بومة، أراقب وجوه أبناء عمتي الصغار

الذين يجلسون على حافة فراشي، أو الأريكة المجاورة، أو في الهواءِ يلوِّن الفجر بشرتهم الزرقاء، وترمقني أعينهم الواسعة بالحقدِ.

تذكرتُ الأصنام التي تحدث عنها والدي، ترى من تكون؟ أقول: "ربما قصد تمثال عبدالمنعم رياض، أو سعد زغلول، طلعت حرب، نجيب محفوظ، ورأس طه حسين، وربما قصد التماثيل القديمة مثل: رمسيس، ممنون الأصغر المسروق، أو رأس نفرتيتي المسروق أيضًا، وربما كان يتحدثُ عن الوثن الأكبر أبو الهول، سأتعبُ كثيرًا حتى أحطم ذلك الأخير، لكن التعب قدر الأنبياء".

قفزتُ في الأتوبيس القادم، تصارعتُ مع الجميع فانتصرت، وجدتُ مقعدًا فارغًا فجلستُ سعيدًا بنصيبي من المجدِ، عاودت التفكير مرة أخرى، ترى من يكون ذلك الوثن؟ أتأملُ وجوه الناس المكرمشة بتجاعيدها الكثيرة، تبدو كلها كمشاريع أوثان رائعة، أنظرُ إلى كعوب أقدام السيدات الواقفات، أراهن وهن ينظرن بطمع إلى مقعدي، فأسقطُ رأسي على صدري مدَّعيًا النوم، يقولون بأن الصنم هو من لا يشعر بالآخرين، لكنني لا أظن بأن هذا هو مقصد أبي.

كنتُ أجلسُ في حديقتنا الصغيرة، يمسكُ أبي بشتلة طماطم وعلمني زراعتها، يستغل كل لحظة فارغة ليملأها بالمعنى، يحكي لي أسرارًا أجهلها مثل عيني أم.، كان يحبهما جدًا، وتزوجها بصعوبة بسبب فقره، ثم ضحك وقال: "وبعد أن تزوجنا ماتت"، يقول هذا ببساطة شديدة جعلتني أشك في صدق هذا الحبِ، لكنني لم أعلم ?

سوى من حكايات عمتي- أن هذه البساطة كانت تخفي وراءها انكسار الرجل.

يأتي عمي متأخراً كالمعتاد مع غروب الشمس، يصافح أبي ويصافحني بقوة، يربط "التبلية" حول خصره جيداً، ثم يبدأ في تسلقِ نخلتنا اليتيمة، أراه معلقًا هكذا في السماء وقرص الشمس يغرب من ورائه، فأشعر بالرجولة والعظمة، وأدعو الله كثيراً أن أصير مثل ذلك الرجل، وفي مساء اليوم التالي أدعو الله كثيراً أن لا يتقبل دعوتي، كان عمي قد مات، سقطَ من نخلةٍ ومات، ودعوتُ الله أن أصبح مزارعاً مثل أبي.

وبعدها بأيام وجدتني في بيت عمتي، لم أعرفها، لم نكن نزورها كثيراً، بدأت تحكي حكاياتها المخيفة عن الموتى، لم أعرف كيف جئت هنا أو لِمَ؟ شرد وعيي عن الزمن، وعرفت بعدها أن أبي قد رحل أيضاً، ودعوت الله أن لا أصير شيئاً، ولا يتذكر وجودي أبداً.

عدتُ إلى البيت مرهقًا، القاهرة مدينة كبيرة وملعونة، روحها مثل روح بومة تائهة، قبلت زوجتي فقبلتني، ها هو ابني الجميل "إسماعيل"، قبلت جبين الصغير، شعرتُ بحاجة ملحة إلى النوم، عينايَ تشتاق للعدم، لكنني لم أفعل خشية أن أموت دون أن أجد ذلك الوثن، فكرتُ بأن أسلم رسالتي إلى ابني، حكيت للصغير الكثير من الأشياء التي يجهلها، الجرح الذي يلوث ظهري، والأحلام التي تزعجني، وذلك الحلم خصيصى: "إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى". فينظر إليَّ مبتسماً، سعيداً، ويقول لي: "افعل يا أبتِ" ويطيعني فأتحرر.

خيانة عابرة

"موني" أيتها الطفلة المدهشة، يا من أنجبتكِ في حلم بالكاد أذكره، كيف أنتِ اليوم وقد رحلتِ بعيداً عن هذا العالم؟ أتذكركِ كائنِ طفلة حقيقية، لك ساقان صغيرتان، وأصابع قدمين نظيفتين، وتنورة قصيرة حمراء، هل تتذكرينني يا موني؟ أنا الكهل المسن، وهل تذكرين ذلك البيت المنسيّ الذي جمعنا ببعض ذات حلم عابر؟

كان الليل ليلاً والقمر قمراً، وموني تقف بشعرها الأسود الفاحم على مقربة مني، وددتُ لو مددتُ يدي وداعبتُ خصلاتها الليل، لكنَّ طرقًا عنيفًا على الباب أوقفني، فتحتُ الباب فقابلتني عدة وجوه ملثمة لرجال يحملون الأسلحة ويمسكون ببعض الرهائن، اختبأت موني وراء ظهري، ووجدتُ ابني الآخر يضع يده في فوهة أسلحتهم فرحاً.

قلتُ بجزع: "ماذا تريدون؟!"

قالوا: "نبحث عن المزيفين".

وعندما أخبرتهم أن لا يوجد هنا أي زيف، صدقوا ورحلوا.

موني – أيتها الفكرة الهاربة من جلدي – دعيني أرى رقصتك الأخيرة مرة أخرى، وأنتِ تقفين على قدم واحدة، وتدورين حول ذاتك بينما موسيقى بحيرة البجع تدور بالدنيا من حولها، تذيب المدن وتفتتها، وحدها الموسيقى قادرة على خلق مدينة العجائب، وأنا أريد أن أراكِ مرة أخرى، فقد خانتني الفرصة حينها، أريد أن أعرف أين قبرك كي أحمل الزهور إليكِ.

البيت المنسيُّ في الطابق الثالث، وأنا أردتُ أن ألعب مع موني، لكن زوجتي صرخت فيَّ وأمرتني بشراء بعض حاجات المنزل، أمسكتُ بيد موني بينما تعلق أخوها في رقبتي، وجدتُ الملثمين ينتظرونني في الشارع، خفت على موني فخبأتها وراء ظهري، لكن أحدهم شم رائحتنا، أشار ناحيتنا، صرخ: "المزيفون هناك" ولم أكذب هذه المرة، صعدت البناية محنيًا هاربًا من أسلحتهم، جرينا حتى صعدنا عشرة طوابق، ووجدنا الطابق الثالث هناك.

تعالى طرق الباب لكنني لم أفتح، ظللتُ جالسًا على ركبتي وفي حضني موني، أمامي يقف أخوها سعيداً كشيطان صغير، شعرت أنهم سيحطمون الباب فبحثتُ عن طريق للهروب، ووجدت تلك النافذة هناك، فتحتها وفوجئت بالارتفاع الشاهق، مددت يدي أتحسس الهواء، فوجدت ماسورة مياه وأمسكتها، تعلقت موني في حضني جيداً وبدأنا النزول، تذكرتُ ابني الآخر فجزعت؛ تركتُ يديَّ، وبدأت أهوي من علٍ حتى احتل الظلام قلبي.

موني أيتها الفجر البعيد، يا ضوء الشمس الشارد عن نافذتي، أتذكركِ كما أردتِ دومًا، فراشة زرقاء نادرة، أغنية قديمة من الذاكرة، بحر في

الطفولة أو قصر من الرملِ، ككل الأشياء التي لم يقدر لها أن تكون، لكنها ظلت في برزخها تلفظ أنفاسها، هناك في الظلام؛ حيث لا يراها أحد، سامحيني أيتها الرقيقة، لم أُرِد خيانتكِ أبدًا لكنها الحياة.

استيقظت فجأة، نهضتُ ثم عدوت ثم عرفت أنني أعدو وحدي، لم يكن هنالك أحد من الملثمين، كانت هناك سوقٌ قديمةٌ، كأنني في زمن غابر، غبار الزمن يعفر ملابسي؛ عباءَتي وعمامتي الكبيرة، وقفتُ أتأمل الناس وطرقات المدينة والأسوار والقبب والمآذن، هذه مدينة مقدسة، لعلها إحدى بلداننا، بغداد أو القاهرة، مشيتُ للوراء فلم أستطع، وجدتني أتقدمُ مجبراً، يزيحني التجار والعبيد، في هذا السوق كل البضائع متوفرة.

أسألُ: "أين موني؟"

فيضحكون، يعطوني الولد.

أسألُ: "أين أختك؟"

فيضحكُ معهم، أصيحُ فتبدأ الجدران بالتآكل، ويتفتتُ المكان.

فتحت عيني فوجدتني عدتُ إلى زمني، ووجدت موني تجري أمامي، بتنورتها القصيرة الحمراء، والملثمون يملؤون المكان، بعضهم يرتدي أقنعة، والآخرون يرتدون جلدهم الباليِ، والجميع متفقون على شيء واحد، كلنا نطارد تلك الصغيرة.

كانت الأرض حمراء لما اختفت موني فجأة، ومع ذلك ظللتُ أعدو، لم يكن هنالك من منافس، لم يكن هنالك مركز أول أو ثانٍ، لم يكن هنالك معنى للسباق.. للعدو.. للتناحر، لكني أبيتُ أن أهزم.

ورأيت هذا الشيخ يتقدم إليَّ، هَأنا مع الخاسرين نحتفل سويًا، سلمني ذلك الدجال جمجمة: رأس طفلة صغيرة، هجموا على رأسها، وتلذذوا بالتهامها، ومصمصة عظامها، ولعق أصابعهم، كل شيءٍ كان مقززًا، لكنني كنتُ جائعًا أيضًا.

موني أيتها الفردوس المشتهاة، ما أبشع طعم التفاح الأحمر.

أقف في أرض غريبة تدور حول نفسها حتى تعرج للسماء، في الأسفل يوجد ظلام كئيب، وفي الأعلى نور إلهي، أقف في عتمة روحي أتأمل موني وهي تمشي، وتعرج للأعلى، أتذكرُ تلك السوق القديمة، قال التجار: "قد بعت واشتريت الخيبة"، بعت ماذا؟ لم يرد أحد، عمري الضائع في السباق.

قال الدجال: "اختر".

قلت: "الولد قاس، لكن موني أرقّ من ورق الشجر".

والآن أنا عليل، لو أن نسيم الهواء يأتيني، والآن أنا بعيد وموني تعرج وتتركني.

تسقط الجمجمة من يدي، يتردد صدى انكسارها بقوة فيفزع موني، تحطم رأسكِ يا صغيرتي، صرتِ مثل شبحٍ، فلماذا لا تموتي؟ تكاد تفقد توازنها، تتشبث بسحابة بيضاء تحميها وتحملها، تتحرر من أخيها القبيح، ها هو يقع ويتهشم، كما كان هشًا كل شيء، لكن موني لا تموت، تحلقُ في السماء بينما أبكي أنا وأنا أسمع صوت الظلام يناديني باسمي المجهول.

خرافة عابرة

فتاة فقيرة لها عينا قطة، وروح قطة، غازلتني في طريق العودة وقالت: "مياو!"، التفت إليها وابتسمت، لم أعرف أنها تصطاد رجالها بهذه الطريقة ولم أهتمّ، كدت أتابع طريقي لولا أن رأيت هالة نورانية فوق وجهها فأشرت لها بيدي أن اقتربي، وأطاعتني كأية قطة مطيعة.

قالت: "نتفق الأول".

فأجبتها: "لن نختلف".

لكن نوايانا كانت مختلفة، هي تريد نقود الفراش وأنا عاجز تمامًا، مريضٌ بـ Writer's block ولن أقدر أن أهبها شيئًا.

وبطلتي فتاة فقيرة في وجهها مسحة حزن وعفرة الفقر، لكنها عنيدة، تعرف طرق التغنج، تلهو بي ولا تأتي إليَّ، تقترب مرة وتبتعد عشرة، ألمح طيفها في الحسين وشارع المعز والغورية، تختبئ في

أجسادِ الناس كأنها عود هارب من العصر الفاطمي، لا أعرف ماذا تريد مني حتى اليوم، لم تهمس بسرٍّ عن حكايتها كل ما في الأمر أنها تطل عليَّ بوجهها من خلف جدار، أو من بين الوجوه، فقط لتهرب سريعًا قبل أن أمسكها بيديَّ.

سألتني الفتاة التي لها روح قطة عمَّا أكون، وهي تنظر إليَّ كأنني من سليل الآلهة والأساطير، لا بد أنها رأتني وأنا أغادر بيت الشاعر أخبرتها أنني روائي، فجلست أسفل قدميَّ وهي تتأمل جدران وأثاث بيتي، لم يكن هناك ما يمكن أن يثيرها، أثاث قديم وجدران قسم الدهر ظهرها، أما أنا فأرتدي قميصاً وجينز، وأدخن سيجارة كيلوباترا، لكن بالرغمِ من هذا لم تبهت نظرتها الجائعة إليَّ، اقتربت إلى شفتيَّ وهي تنسال في جسدي.

قبلتني وقالت: "اكتب عني قصة".

فضحكتُ وقلت لها: "وماذا أكتب فيها؟".

فقالت: "أي شيء، أنا أصلح لأكون بطلة".

كان فوق وجهها هالة نورانية، كأن عهرها وهبها بركةَ الشهداء والقديسين، وكأنها رأت الجنة مرة ولم تسعد بالحياةِ في الأرضِ، شعرت بالغافي يصحو ويشتعل بالدمِ والنار، قبلاتها جائعة إلى شيء ما ورائحتها لها عبق من التاريخ، بدأت أذوق ما عندها وألحسها بلساني، تاريخها ينسال إليَّ، أسرارها تصبح ملكي، وحين اقتحمتها أطلقت آهة واحدة وكتمتها، فصفعتها على مؤخرتها وبدأت تصرخ مرة أخرى، أريد أن أطلق لها العنان حتى تصير حرة وتتجلى فيَّ،

الأجساد لا تكذب أبداً، ظللت داخلها، أرى كل شيء عنها، صور تتقاذف في كل اتجاه، بينما هي تصرخ، صرخاتها تشعلني أكثر، تصرخ وكأنها تبكي، وقبل أنْ تكتمل ذروتها وجدتني قد انتهيت.

ارتديت ملابسي سريعًا ونظرت إليها، كانت لا تزال عارية، تجلس أسفل قدمي، وقد ساح كحل عينيها. ولم أطل النظر إليها.. وضعت لها النقود على المنضدة فنهضت لترتدي عباءتها السوداء تركتِ النقود في مكانها وعادت لتجلس أسفل قدميَّ مرة أخرى.

وتقول وهي ترجوني: "لكنني لا أريد هذه النقود".

نظرت إليها متعجباً وقلت لها: "لكننا اتفقنا".

فنظرت إليَّ كأنني من سليل الآلهة والأساطير، وقالت لي: "فقط اكتب عني قصة".

ألقيت عليها نظرة ولم أرَ فيها شيئًا مميزاً، اختفت هالتها النورانية المزيفة التي رأيتها، مجرد عاهرة فقيرة، لم أعرف ماذا أقول لها، لكنني قلت على أية حال معتذراً: "لكنكِ فارغة تماماً" فهزت رأسها متفهمة، وفي عينيها دموع تجاهد لسجنها، ومدت يدها إلى النقودِ وأخذتها ووضعتها في كيس بين نهديها، ومشت بخطوات ثقيلة حتى باب الشقة، ولمَّا أغلقت الباب وراءها انفجر نحيبها.

مغامرة عابرة

– تريدُ مقابلةَ الخالةِ (عيدة)؟ .. هذه المرأةُ الملعونة.. بالطبعِ أعرفُها .. يذكرُني اسمُها – كلما قيلَ – بفتاةٍ أحببتُها سكنتْ حيًّا منذُ خمسةٍ وعشرين عاماً.

– أينَ ذهبتْ؟

– رحلتْ بعيداً جداً إلى حيثُ لا أعرف ، أخذها أهلُها إلى مستشفى المجاذيب، ولم يعودوا من يومِها أبداً .. أذكرُ ملامحَ هذه الفتاةِ جيِّداً كأنني رأيتُها بعينيَّ وهي جالسةٌ بالشرفةِ تغني لـ (فيروز) و للقمر " نحنُا والقمر جيران ".. ثم تخلعُ ملابسَها وتلقيها علينا.. تقفُ عاريةً أسفلَ ضوءِ القمرِ الفضي، وتلقي بالقبلاتِ على المعجبين ببراءةٍ طفوليةٍ.. أنصتُ جيداً لحكاياتٍ منْ حولي وهم يصفونَ مفاتنَها، فأشعرُ بالسعادةِ والغيرة في آنٍ واحدٍ، أتمنى أنْ

يستمروا في وصفِها إلى الأبد، وحين ينتهون أودُ اقتلاعَ ألسنتَهم وأعينَهم.

لا تضحكْ هكذا فلم أكنِ الأحمقَ الوحيدَ، جميعُنا وقعنا كالأغبياء في عشق فتاةٍ مجنونة، لكنني كنت أهلكَهم عشقًا.

– لماذا؟!

– ما شأنُكَ أنتَ بهذا ؟! أنتَ غريبٌ عن الحيِّ، أستطيع أن أشمّ رائحتَك جيداً، من أين أنت؟ رائحتُك نظيفةٌ و تضعُ عطراً غالياً .. وما هذه .. كرافتة؟ بدلة ؟!، أنتَ باشا إذن! ... فما الذي يجيء بالباشوات يا تُرى في حيِّ الصعاليك ؟!

تكلمْ، قلْ أيَّ كذبةٍ وسأصدقُك، سأدعُك ترحلُ بعدها دونَ مشاكلَ، لن أخبرَ فتواتِ الحيِّ بوجودِك، هم لهم أعينٌ في كل مكانٍ على أيةِ حال، وليسوا بحاجةٍ إلى عينِ رجلٍ أعمى، لكنكَ لا تعرفُ ماذا أستطيعُ أن أفعلَ، لو كنتُ مكانك لفررتُ بعيداً عن هذا العجوزِ الأعمى، أو على الأقلِ لرشوتَه بسيجارةٍ من سجائرك الغالية.

أنتَ رجلٌ عاقلٌ، لكنَ سيجارةً واحدةً لا تكفي أريدُ واحدةً أخرى .. جميلٌ .. جميلٌ .. أنتَ رجلٌ عاقلٌ جداً وأنا أحببتُكَ، أحبُ عقلَك وحكمتَك، وأسمعُ الأفكارَ وهي تدورُ بداخلك، تجلسُ كأحدِ جهابذةِ العصر، تضعُ قدماً فوقَ الأخرى وتشرب القهوة، تنزلُ قدمَك كلما مرَ أحدٌ بجوارك، وتلقي السلامَ على الجميع، تشعرُ بالاندماج مع المكانِ كأنكَ وُلدتَ هنا أيها الغريبُ، لكنك لستَ محظوظاً، فقد قادك النحسُ إليَّ من بينِ كلِ رجالِ الحيِّ جئتَ تسألُني عن الخالة، لقد سألتَ

الرجلَ الخطأ، وهنا تنتهي مغامرتُك البلهاءُ .. أليست المغامرةُ هي التي دفعتك لدخول الحيِّ ؟ جئتَ تبحثُ عن قصةٍ شيقة لكنني أراهنُك أنكَ لا تعرفُ معنى هذه الكلمةِ أصلاً .. مغامرةٌ.

ماذا تعرفُ أنتَ عن المغامرة؟! تجلسُ في المقاهي تدخنُ الشيشةَ، تراقبُ ملامحَ الناسِ من حولك، تتلصصُ على أحزانهم السرية ثم تنهضُ وتعودُ لبيتكَ سالمًا في آخر المساء، تمشي متثاقلاً كمن يمشون في الفضاء.

مؤخراتُكم – يا باشا – سمينةٌ ... وامتلأت أجسادكم بالدخان، سأشرحُ لكَ ماذا تعني هذه الكلمة؟ تعلمتُها من رجلٍ بالكاد أذكرُه، كان عاقلاً – مثلك – يعشقُ المغامرةَ وكتابةَ الشعرِ، يكتبُ ولا يفعلُ شيئًا سوى الكتابة، كلماتٌ غبيةٌ لا يفهمُها الناسُ يتلوها على مسامعِهم في المساءِ، يخبرُهم أنَّها قصيدةٌ – هكذا اسمها – ، كُتبتْ على بحر كذا ، لكنهم لا يعلقون بكلمةٍ ، يحملقون ببلاهةٍ فقط، يقولُ لهم: " القصائدُ كالقواربِ تنقذُ الغرقى للشاطئِ البعيد" ، ثم يلقي نظرةً أخيرةً عليهم قبلَ أن يبصقَ قائلاً: " لكنكم لستم غرقى بل أمواتًا ".

يقررُ الرحيلَ إلى القاهرةِ ويحلمُ بنشرِ ديوانٍ هُناك ، لكنَّ الجميعَ يسخرُ، حدودُ الكرةِ الأرضيةِ تنتهي عندَ آخرِ هذا الشارعِ ، إذا خرجتَ من الحيِّ ستسقطُ في الفضاءِ – هكذا قالوا – لكنه كان عازمَ النية ممتلئًا بالنشاط ، ذهبَ إلى الخالة (عيدة) لإخبارِها لكنها لم تعطِ له الإذنَ بالرحيل، الحيُّ بالنسبةِ لها مملكةٌ، وهي تملكُ الحيلةَ والجندَ للحكم.

أشعلتْ بخورَها وقالت: "ليس مقدراً لكَ السفرُ".

وكتبت للمسكينِ قدراً جديداً، مغامرةٌ أعظمُ مما سبقتها.

تسألني: "ما هي؟!"

ما شأنكَ أنتَ بكل هذا؟! ... احكِ لي مغامرتك التي جاءت بكَ لحيِّنا العفنِ وبعدها أكملُ لكَ بقيةَ القصة.

تريدُ مقابلةَ الخالةِ (عِيدة)؟.

أعرفُ هذا أيُّها الغبيُّ ، لكنكَ لا تعرفُ شيئًا عمّا تطلبُ، ماذا تعرفُ عن الخالةِ ؟، دعني أخبرُكَ عنها فأنتَ غريبٌ والغرباءُ يجهلون دومًا.

حينَ أقولُ لكَ الخالةُ (عِيدةُ) ماذا يطرقُ مخيلتَك؟

امرأةٌ عجوزٌ بضعفِ عمري ، ورغمَ ذلكَ لا تزالُ حيَّةً، أسنانُها كلُها محطمةٌ ما عدا سنتيها الأماميتين، نعم هي تبدو كأرنبةٍ عجوزٍ شعرُها أبيض أشعثُ بتجاعيدَ كثيرةٍ، نعم هذه هي الخالةُ (عِيدة) لكنكَ نسيتَ أنْ تتخيلَ عينيها الحمراوين الغاضبتين دومًا وأظافرَها الطويلةَ المتسخة، ما زلت مصراً على مقابلتِها حسنًا .. حسنًا سآخذُك إليها، تعالَ لكنْ لا تنسَ أنَّ صديقك العجوزَ الطيبَ قد حذرَك ، هي لن تساعدَك ولن تحبَّك ، فالغرباءُ مكروهون أينما ذهبوا، هو اختيارُك على أيةِ حالٍ، فلتمسكْ بيديَّ جيداً، وتذكرْ أنْ دليلَك في الحيِّ رجلٌ أعمى.

دعْنا نسيرُ في ذلكَ الشارعِ الضيقِ، هو طريقٌ مختصرٌ إلى الخالةِ، كنتُ أخافُ هذا الشارعَ جداً في صِغري بالطبعِ، فالجميعُ

يحكون عن العفاريتِ التي تجلسُ فوقَ سطحِ الخالة، والموتى الذين يأتون من ناحيةِ المقابرِ لم أرَهم – بالطبع – لكنني شعرتُ بوجودِهم، سمعتُ همساتِهم تذوبُ في صوتِ الريحِ.

تسألني: "هل يخاف العميان ؟"

"خزاك اللهُ وهل يُخافُ سواهم ؟"

لك أنْ تتخيلَ ماذا تفعلُ بنا الظلمةُ وحدَها، لكنني حينَ كَبِرْتُ لم أعدْ أخشاهم، فالعفاريتُ أصبحت تختبئُ في بيتِ الخالةِ، والموتى يعدون إلى مقابرِهم، يحدثُ ذلكَ عندما أمرُّ بالشارعِ فقط.

ما لِيدك المتعرقة ترتجفُ في كفي ؟!

أيُّها الأحمقُ .. كيفَ تخافُ وأنا معك ؟! ربما تخافُ مني أنا!

لماذا تقفزُ هكذا؟

هذه قططُ الشوارعِ المسكينةُ تبحثُ عن وجبةِ غذاءٍ في صناديقِ القمامة ... كم أنتَ جبانٌ وأبلهُ ، لو كان معك غيري الآن لسرقك وقتلك ، لكنك جئتَ تريدُ الخالةَ، الأفضلُ أنْ نتركَك لقدرك.

اسمعْني جيداً، الخالةُ (عِيدةُ) شيطانةٌ حقيقيةٌ وأنتَ أجبنُ من مقابلتِها، لا تدعي الشجاعةَ هكذا، عليكَ أنْ تصدقَني ، اهربْ ... انجُ بنفسك.

ماذا؟ تريدُ بقيةَ القصة!

حسنًا سأكملُها لكَ فربما تنقذُ حياتَك، تذكرِ الفتاةَ الجميلةَ التي أخبرتُكَ عنها، نعم الفتاةُ التي تتعرى للقمرِ، هربتْ هذه الفتاةُ ذاتَ يومٍ ، أستطيعُ أنْ أتخيلَ كيفَ فعلتْ ذلكَ وكيفَ فكرتْ لحظتَها ،

العقلاءُ يظنون أنَّ المجانينَ لا يفكرون لكنهم يفعلون، يفكرون جيداً لكن بطرقٍ لا يحكمُها المنطقُ، هذا هو كلُ الفرقِ.

تريدُ أنْ تعرفَ كيفَ هربت ؟

أستطيعُ أنْ أتخيلَ هذا، قفزتْ من شرفتِها بالطابقِ الثاني، انكسرتْ قدمُها اليمنى لكنَّها لم تصرخْ سُجنتْ آلامُها بداخلها وسارتْ تعرجُ إلى هناكَ حيثُ بيتِ الخالةِ بالطبعِ، لم تتوقعْ الخالةُ زيارتَها المفاجأةَ، حتى عفاريتُ الخالةِ اندهشوا حينَ رأوها، فتحت الخالةُ البابَ وقبلَ أنْ ترحبَ بها قالتْ الفتاةُ ما تريد، هكذا بجنونٍ دونَ مقدماتِ العقلاءِ السخيفةِ، هي تحبُ وتريدُ أن تحبَ، حقُّها أليسَ كذلكَ؟ حقُّها بالطبعِ ما دامتْ ستدفعُ – هكذا فكرت الخالة –، طلبتْ منها أنْ تأتيَ بأيِّ شيءٍ من هذا العاشقِ المحظوظ ، فأخرجتْ الفتاةُ قصيدةً.

نعمْ، أحبتِ الفتاةُ شاعرَنا، حدثَ ذلكَ عندما كانَ يجلسُ في المقهى، ويلقي قصائدَه على الصعاليك الأغبياءِ الذين لم يفهموا منها شيئًا ، لكنها لم تسقطْ أرضًا، فللقصائدِ أجنحةٌ تحلقُ بها صوبَ قارئِها؛ لذا وصلتِ الكلماتُ للفتاة، وأحبتها، وأحبتْ صاحبَها.

تسألُني: " هلْ يحبُ المجانين؟ " .

يا لغبائك .. وهل يحبُ سواهمُ ؟!

أخبرْني إنْ لم تجد الرابطَ بينَ كل هذه الحكاياتِ المتناثرة، قلْ ذلكَ ولا تخفْ لنْ أغضبَ منكَ ولنْ أضربَك، سأخبرُك فقط أنَّك أغبى أغبياءِ العالمِ، شغِّلْ مخَّكَ السمينَ، عليكَ أن تفكرَ فيما يُحكى عليكَ، لا

تنتظرْ شيئًا ، فالإجاباتُ لا تأتي وحدَها، ارجعْ البصرَ وأخبرني هل ترى من فطور؟

تريدُ مني أنْ أساعدكَ، حسنًا تذكرْ أنَّ قدر الشاعر قد تبدل، فماذا حدث؟ ماذا تكون المغامرة الأعظم؟

أسمعك تقول شيئًا. ماذا؟ الحبّ؟!

هذا كلام أفلام أيها الأحمق، العقلاءُ لا يحبون المجانينَ أبداً، بل يخشونهم ، يرون فيهم أبشعَ النهايات، الحياةُ مرهقةٌ وتدعو للجنونِ كلّ لحظةٍ، والناس لولا رحمة ربك لجنُّوا، كيفَ يحبُ شاعرُ فتاةً مجنونةً ؟ الجنونُ نقصُ والشعراءُ يبحثون دومًا عن الكمالِ.

لكنْ دعكَ منْ هذا، فشاعرُنا لم يرَها أبداً أصلاً، بلْ لم يكنْ يعلمُ بوجودها بالحيِّ ، كان منشغلاً عنْها بالفتياتِ الخيالياتِ اللاتي يعشقْهنَّ، وحده من بين كل الحيِّ يعلم بوجودهن في ذلك العالم العدمي؛ حيث لا يكون شاعراً أعمى، بل يصيرُ ما يريدُ، لكن هذه (الجدارية) تحطمتْ ذات يوم حين رآها عارية في الشرفة تغني للقمر.

تسألني: "هل يرى العميان؟"

عجبت منك ألا يعمي الحبُ المبصرين دومًا؟

للحبّ معجزاتٌ كثيرةٌ ، هكذا ظنّ يومَها، في تلك الليلة تغيرَ كلُ شيْءٍ بداخلِ قلبه، ولم يكن يعلمُ بأن كل شيْءٍ تغيرَ قبلَ هذا بكثير، حتى قدره يوم أنْ هربتِ الفتاةُ ولجأتْ للخالة، لم يكن يعلمُ بأن تأثيرَ الحبِّ والسحرِ واحد، ولهذا فقد أحبَّ الفتاةَ منخدعًا كالأحمقِ بسذاجةِ وطفولةِ المجانينِ.

لكنَّ الفتاةَ - كما أخبرتُك - رحلتْ هكذا فجأةً ودونَ مقدمات، استيقظَ في الصباحِ ولم يجدْها بالحيِّ، علمَ أنَّ أهلَها أخذوها بعيداً بعدما كشفوا أسرارَ الشرفةِ وضبطوها عاريةً أسفلَ القمرِ، حاولَ أنْ يجدَ سجنَها الجديدَ ففشلَ، سألَ الطرقاتِ والأغنياتِ والقمرَ، لكن خذلهُ الجميعُ، شعرَ بالعمى بشدةٍ بعدما عجزَ عن إيجادِ الطريقِ إليها، فذهبَ للخالةِ كي يرى بعينيها، وبمساعدةِ العفاريت لكنَّ الخالةَ فشلتْ أيضًا في إيجادها، نجحتْ في سرقةِ عقلِه، وعجزتْ عن إيجادِ قلبِه الضائع.

حاولتْ مراتٍ أخرى كثيرةً ، لكنَّ الفشلَ ظلَّ يتكررُ مراراً. ففكرتْ في حلٍّ آخرَ لمساعدةِ العاشقِ البائسِ، قررتْ أنْ تخبرَهُ بالحقيقةِ فيبطلُ السحرُ، ستقولُ: " أنتَ لم تحبها من الأصلِ ولكنْ شبِّهَ لك" ستخبرُه أنَّها سرقتْ عقلَه، و بسرقةِ العقولِ يبتدئُ العشقُ، لكنها حينَ فعلتْ ذلكَ لم يتغيرْ شيء، ولم يبطلِ السحرُ بل اشتعل أكثرَ، ووجدتْ أمامها رجلاً مجنوناً أعمى لا يربطُهُ شيءٌ بالشاعرِ الذي عاشَ بالماضي سوى ذكرياتٍ غريبةٍ عنهُ، كأن صاحبَها رجلٌ آخر عاشَ في جسده وهلكَ.

جُنَّ المسكينُ جنونًا بدا له حكيمًا كأنما اختارَ الجنونَ طوعًا، كأنما أرادَ أنْ يصيرَ مثلَها - مجنونًا - تائهًا في هذا الوجودِ يغني للقمرِ في الليلِ ويمشي عاريًا في الطرقاتِ، لعل جنونَهُما هو الشيءُ الوحيدُ الذي يربطُهما ببعضٍ، ويقربهما أكثرَ كلَّما بلغَ بهما الذروةَ.

والآنَ أخبرْني ، هلْ تريدُ مقابلةَ الخالةِ (عيدة)؟ .. هلْ لا تزالُ تبحثُ عن مغامرتك التي تنشدُها؟ تريدُ أنْ تعرفَ قدرَك؟ أمْ تريدُ أنْ تبدلَه بقدرٍ جديدٍ؟ إنكَ تقفُ الآنَ أمامَ بيتِ الخالةِ .

نعم هذا هو البيتُ الملعونُ، دعني أصفُ لك المكانَ بعينٍ عمياءَ، فالعميانُ يرونَ ما لا يرى المبصرون؛ البيتُ مكونٌ من طابقين، تعيشُ الخالةُ في الطابقِ الأولِ ومعها بعضُ قططِ الشوارعِ المشردة، فهي تعشقُ القططَ بقدرِ ما تكرهُ البشرَ، في الطابقِ الثاني يعيشُ عفاريتُها الذين تحبهُم ويخلصون لها، يحمون البيتَ من حقدِ الناسِ لامرأةٍ عجوزٍ مثلها، يسهرون في الليل فوقَ السطحِ ويرقصون في الطرقات على بكاءِ البائسين، يقفُ خلفي الآن عفريتٌ صغيرٌ يتأملني، ستأتي أمُّه حالاً كي تنقذَه مني، ها هو صوتُ فحيحِها يقتربُ، يخشاني العفاريتُ كثيراً، ما عدا حراسُ الخالةِ المقربين، فالجميعُ يعلمُ أنَّ لي ثأراً معها، يعلمون أنني سآتي ذاتَ يومٍ إلى بيتها، في ظلمةِ الليلِ أو في ضوءِ النهارِ، وسأنتقمُ ولن يمنعَني أحدٌ منهم، ... لكنَّ هذا اليومَ لم يأتِ بعد.

يمكنُك أنْ تطرقَ بابَها وبعدَ ذلك تصعدُ إليها ، و تسألُها ما تريد، و لن يمنعك أحدٌ .. القرارُ قرارُك، هو قدرُك أو اختيارُك، لستُ أعرفُ .. تستطيع أيضًا أن تهربَ بعيداً جداً إلى حيثُ لا تصلُ إليك أيديها الطويلة، فقد حصلتَ على قصتك التي تريدُها، وعشتَ نصفَ المغامرة.

ها هو بيتُ الخالةِ يناديك، وها هو الطريقُ يشتهي عودتَك. فدعْني الآنَ ، أنا لا أبالي بنهايتِك. أريدُ فقط الرحيلَ عن هنا، لست خائفًا من العفاريت .. و لا الأشباحِ ولا الموتى، لكنني رغمَ كلِّ شيْءٍ ما زلتُ أخشاها، هي الخالة (عيدة) ولا سواها.

صندوق قذر

صندوق قمامة قذر، أخضر اللون، عند أول ناصية الشارع، يحمل رائحة كريهة ومختلفة عن كل الصناديق الأخرى، هكذا يشعر هو عامل النظافة البائس الذي رماه الحظ هنا، في ذلك الحيِّ الفقير، إكرامية ضئيلة وقطط ما أكثرها؟! تأكل كل شيء، لكن الرزق من عندِ الرزاق الكريم، وإن كان يأتــي

– أحيانًا – من صناديق القمامة، له حكمة في الكون.

أمام هذا الصندوق ظل واقفًا، يتفكر في هذه الحكمة، ينصتُ إلى طنين الذباب المزعج المكوم حول القمامة، تأتي ذبابة صغيرة وتقف فوق الأنف، تفتش في ذَيْنِكَ الخرمين.

يقول في سره: "هذان الخرمان أفضل من آخر".

ويتركها تفعل ما شاء لها، لا بد أنها تتفكرُ أيضًا، تستكشف ذلك العالم، ذلك الغار، فلماذا يمنعها عن الوصول إلى حكمة الله البعيدة؟

لكنها لا تصل إلى شيء، تطير فجأة وترحل، يحس بوحشة بعد غيابها، وينتظر عودتها.

لمّا بدأ العمل كان كسلانَ، لم يكن خرمانَ كورقة بالية، لم يكن متكاسلاً يوماً، لقد ظن هذا مفهوماً، وقد دعا الله كثيراً بقلب سليم، قال: "أريد أن آكل"، والله يسمع الدعاء، وهناك في الركن البعيد داخل صندوق القمامة وجدها: علبة سجائر مالبورو أحمر، نظرَ إلى السماءِ مندهشاً، لم يكن مدخناً وقد ظن هذا مفهوماً، وعلى أية حال فتحها فوجدها تنقصها سيجارة واحدة، والجوع كافر، وهو يريد أن يأكل، والجيب فارغ، وقد ظن أن ليس هناك مشكلة كبيرة. الله كريم جداً ورزاق.

وأشعلها تلك السيجارة، وذاقها وأحب طعمها، لم يذق سيجارة من قبل، وبدأ يرقصُ في الشارع ويقفزُ كثيراً، مثل قرد، من قدم إلى أخرى، ينفث الدخان حتى تمتلئَ السماء بالسحبِ، والله عظيم جداً ومتعال.

ولأيام كثيرة ظل على هذا الحال، يقف أمام صندوق القمامة الأخضر، تأتي ذبابة صغيرة وتبحث في خرمِ الأذن عن شيء ما، وهو يبحث عن علبة أخرى "مالبورو أحمر"، يدعو الله أولاً: "يا رب أنا جائع"، ثم يبدأ البحث فيجدها تلك العلبة تنقصها سيجارة واحدة، وقد أدمن التدخين وأحب الله كثيراً. والله رحيم جداً ورحمن.

لم يكن يفهم أن هناك سر وراء تلك العلبة، لو انتظر حتى المساء لعرفَ أن تلك العلبة لا تنزل من السماء مع ملكين، وإنما يلقي بها

رجل يدخن سراً من وراء زوجته التي يخشاها، يشتري تلك العلبة ويأخذ منها سيجارة واحدة ثم يلقي بها، وعامل النظافة ليس غبياً تماماً، حتماً سيدرك في لحظة ما بأن وراء العلبة سر، ها هو يقف قليلاً ويفكر وتلمع عيناه، وفي النهاية لا يصل لشيء، يبتسم ببلاهة وهو يدخن، ويدعو الله كثيراً، لم يسأل: "لماذا يرزقني الله بعلبة سجائر كل يوم ولا يرزقني باللحمة؟"، ولم يشك بأن ثمة حكاية أخرى لا بد أن يتتبعها، وظل يرقصُ ويقفزُ في الشارع سعيداً ومنتشياً، وقد ظن بأن معجزات الله لن تنتهي أبداً، فالله كريم جداً ومنان.

لكن المعجزات توقفت بعدما أدمنها، ربما لأن الله قد غضب بسبب سر ما، أو حكمة، وربما لأن زوجة ذلك الرجل قد عرفت بأمر التدخين سراً، فطردت زوجها، فتاب عن الأمرِ، واعتذر لها كثيراً حتى غفرت، وربما مات ذلك الرجل في حادثِ سيارة، المهم هو أن عامل النظافة ظل ذلك اليوم ينتظر، يدعو الله قائلاً: "أنا جائع"، على أمل أن يجد تلك العلبة تنزل من السماءِ، وتعجب لمّا طال انتظاره، غير أن الشك لم يمس فؤاده، ظل مؤمناً واقفاً أمام صندوق القمامة الأخضر القذر.

بقعة دم

"ملك" الطفلة الصغيرة التي تسكن الطابق الأرضي، عيناها حزينتان دوماً وممتلئتان بالدموع، أهدابها سوداء طويلة، تجلس على عتبة بابها وتنظر إلى الأرضِ شاردة في حزنها، بجوارها ترقد دميتها وقد انكسرت قدمها، وأنا بالرغمِ من تعجلي وجدتها فرصة مناسبة للضحكِ، سألتها عما بها فلم ترد، سألتها مرة أخرى: "من كسر عروستك؟" فظلت على تجاهلها لي.

قلت لها مازحًا قبل أن أغادر: "والدك طبيب فلماذا لا يعالجها؟"

سمعتها تشتمني، وتلقي بحذائها الصغير عليَّ، ضحكتُ بصوت عالٍ، فطاردتني لتركلني بقدمها.

قلتها لها معتذراً: "أنا آسف، آخر مرة والنبي".

لكنها لم تقبل أسفي.

قالت لي بحزنٍ عميق: "قلبي منكسر مثل هذه الدمية، وأنت لا تحس".

وجدتني أفكرُ في ملك وأنا أسير وأضحك، اعتدتها حزينة دومًا، تبكي دمية مكسورة أو بطلة في فيلم أو قطة تموء في الليل، لكنني - وبرغم اعتيادي - لم أزل مندهشًا أمام حزنها العميق، لا أعرف السر وراء دموعها العالقة في رموشها، وبكائها، وصمتها الدائم.

أتساءَل: "ماذا يعرف الأطفال عن الحياةِ كي يحزنوا؟" وأضحك.

ملك - الطفلة الصغيرة التي تعد عمرها على أصابع يدها الواحدة - تصعد إلى بيتِ أمي في الطابق الثالث؛ لتقص عليها مغامراتها، تجلس على حجرها لتسرح شعرها الأسود الناعم.

تخبرها أمي: "أنت أجمل طفلة في الدنيا"

فتضحك.. تصبح مثل شخصيتها الكرتونية المفضلة حين تضحك، يمتلئ خديها بالحمرةِ وتلمع عيناها وتتسعان، لكنها لمّا تراني تقطب حاجبيها وتكشر، وتعتذر لها بأن عليها الرحيل، تسألها عن السر فتهمس في أذنها ضاحكة: "إذا جاءت الشياطين رحلت الملائكة" وتغمز لها، فأضح، يستفزها ضحكتي كالمعتاد فتصفع بابنا وراءها.

نسيت أمر ملك تمامًا، وانشغلت في العمل، أمر على عشرات المقاهي في اليوم الواحد وأعرض بضاعتي التي لا تروق لأحد، شاحن موبايل، هاند فري، جرابات، لكن الناس لا يثقون في الغرباء، ينهض أحدهم في المقهى وينادي: "خالد، تعال".

وعندما أقترب يقول بصوت عالٍ: "بضاعتك جيدة، اشتريت منك من قبل، أريد شاحن" وبالمثلِ يفعل آخر، يطمئن قلوب الناس وينادون عليَّ بدورهم، عدوى تصيب الناس جميعًا، فجأة يحس الناس أنهم بحاجة إلى شاحن أو هاند فري، كأن حياتهم متوقفة على وجود هذا الشيء، وفي الحقيقة سينسون ما اشتروه في الدرجِ ولن يتذكروه، حيلة جيدة لكن لها ثمن، في نهاية اليوم نتقاسم المبلغ مع هؤلاء الأوغاد ولا يتبقى لي سوى حصة ضئيلة.

رن موبايلي كثيرًا أثناء اللف على المقاهي والبيع، لكنني كنت منشغلاً للدرجة التي أنستني الرد، ورن مرة أخرى وأنا أشتري دواءً من الصيدلية، كان رقمًا غريبًا.

قلت: "ألو".

جاءني صوت والد ملك يقول لي متلعثمًا: "خالد.. البقية في حياتك".

وعرفت أن أمي قد وافها الأجل.

ووجدتني أجيب بصوت هادئ: "ونعم بالله!".

وأغلقت الخط، ثم طلبت من الصيدلي أن يستعيد دواءه ويعيد لي نقودي، فنظر إليَّ مندهشًا ثم قال: "كلنا لها يا أستاذ".

مشيت طويلاً في طريق العودةِ شاردًا، سيارات تمر هنا وهناك؛ عربات أجرة، تاكسي، أتوبيس عام، أشياء تذكرتها بعد العزاء بأيام، لم أعرفْ لماذا لم أركب واحدة منها؟ أو لماذا لم أصرخ في الشارع من شدة حزني؟ ظللت صامتًا مثل تمثال، عيناي لم تدمع، قلبي لم

يتوقف، ولم أعرف فيم كنت أفكر بالتحديد؟ بطريقة ما وجدتني أتذكر ملك، ستبكي كثيراً عليها وسيتمزق قلبها.

رن هاتفي مرة أخرى كان والد ملك، سألني قلقًا: "لماذا تأخرت؟"

فقلت: "دقائق فقط".

وقبل أن أغلق الخط سألت متوجسًا: "هل عرفت ملك؟".

فقال لي متعجباً: "ملك! لا لكن لا؟ خالد.. هل أنت بخير؟"

أغلقت الخط سريعاً، وشعرت أن قلبي ينقبض من شدة الجزع.

كدت أن أدلف العمارة لولا أن رأيت ظل ملك أمام عتبة بيتها، ترتدي فستانًا أبيض اللون وتسند رأسها على كفيها، ألقيت عليها نظرة، ثم وجدتني أعود إلى الشارع، ولم تمر دقائق حتى عدت إليها وفي يدي دمية جديدة، أعطيتها إياها وأنا أنظر في أعماق عينيها.

وابتسمت بصعوبة قائلاً: "لا أريد لقلب ملك أن ينكسر".

فابتسمت لي وهي تأخذها ورسمت على خدي قبلة.

وقبل أن أصعد الدرج نادتني قائلة: "خالد أنت زعلان؟".

ولم أستطع النظر في عينيها فهززت رأسي أن لا، لكنها عرفت سري، وقالت بعينيها الدامعتين: "حزين"، ورأيتها تجلس على الأرض أسفل جدارها، تنسى دميتها الجديدة، ولأجلي تحزن، وتقول: "قلب ملك حزين ومكسور".

بنت وولد

يوم جديد ممل، هذ جيد؛ لأنه إن طرأ شيءٌ لن يكون سوى الموت، تشرق الشمس بكسلها المعتاد، على عكسها تمامًا ينهضُ المهندس العجوز، تئنُّ عظامه المسنة لمّا قفز من الفراشِ، يستيقظُ مبكرًا كل نهارٍ كعادة المسنين؛ لأنهم يعلمون أن ما تبقى من أعمارهم قليل، ست ساعات تكفي للجسدِ؛ لأن هناك متسع من الوقت القادم للنومِ.

في الشرفةِ يقف ممسكًا بكوب شايٍ ثقيل، يتأمل الناس وهم يذهبون إلى وظائفهم، والتلاميذ وهم يتمنون العودة إلى بيوتهم، ربات البيوت وهن يتشاجرن في السوق على أسعار الخضار، يتعالى صوت آهات قادمة من غرفة النوم، تستيقظ فيفي، زوجة العجوز، وتئنُّ بصوت عالٍ كأنهما اتفقا على الوجع كدليل على الحياة، لو طال

صمتها يقلق ويذهب ليطمئن عليها، فتكون إمَّا نائمة وإمَّا تقرأ كتابًا، يذهب إليها ليلقي بتحية الصباح.

يقول لها: "صباح الخير".

فترد التحية بـ: "صباح أجمل".

ويقف قليلاً ولا يجد كلامًا، زواج دام خمسين عامًا، تكلموا كثيرًا عن غير داعٍ، ثرثروا وضحكوا، ولم يدخروا شيئًا من الكلام لمثل هذا اليوم، يتركها ويعود إلى الشرفة يراقب المارة مثلما كان، وهم يمشون وراء الجزرة المعلقة على طرفِ العصا.

بعدها يجلسُ أمام التلفاز قليلاً يتسلى بمشاهدة "صباح الخير يا مصر" ومتابعة الأخبار، يسمع نداء فيفي من المطبخ.

تقول بصوت حزين: "حسن تعال إليّ".

فيذهب إليها، يراها تقف والدموع في عينيها فيسألها: "ما الأمر؟".

تشير إلى قدم الكرسي وتقول بطفولة: "انظر".

يرى قدم الكرسي مكسورة وملقاة على الأرضِ، يقلدها في طريقة كلامها ويسخر منها فتغضب، يربت على كتفها ويصالحها بقبلة على خدها ويقول لها: "حسنًا أيتها العجوز اطلعي أكلي الفراخ، وأنا أصلح لكِ كرسيك".

فتبتسم بامتنان، ابتسامتها حلوة، وتنفخ الروح في الماضي البعيد.

دون هذا الكرسي لن تستطيع أن تعد لهما الغذاء، يجلس أمام

التلفاز ويصلح الكرسي، يسمع صوت الساعة العتيقة تدق بندولها المزعج، الساعة التاسعة تمامًا، يدق بالمطرقة المسامير كأفضل نجار وهو يدندن أغنية قديمة:

"يا اللي قوامك يعجبني

ليه بس ترضي لي صدودك؟

هل يا ترى بتأدبني؟

اكمنْ عُزَّالي شهودك".

في اللحظة التي تفتح فيها باب الشقة وتضحك، يتابع الأغنية بصوت أعلى ويدندن:

"أروح لمين أشكي حبيبي

والدهر والعُزَّال حكَّام؟".

فتترك ضحكتها في الشقة وتغلق الباب وراءها .. يعيد الكرسي إلى سيرته الأولى؛ حيث ستجلس فيفي في المطبخ حين تعود، تعد لهما الغذاء وهو يعد لهما الفطار؛ فول بالزيت الحار، وطعمية بالسمسم، وصلطة طازجة، يستطيع الوقوف لمدة طويلة أما هي فأقدامها توجعها، الروماتيزم يفعل هذا، يضحك حين يتذكر نظرتها الباكية ويقف أمام المرآة القديمة للحظة، ينحني بصدره للأمام قليلاً كمستعرضي العضلات، ويقول بصوت قوي: "هع!" ثم يضحك من سذاجة ما يفعل، يعود مرة أخرى إلى التلفاز وينتظر عودتها، ولمّا تعود يجلسان معًا ويفطران سويًا دون أن يتحادثا.

عند المغربِ يعود مرة أخرى إلى الشرفة، يقف للفرجةِ على

الأطفال وهم يلعبون الكرة في الشارع، يحب مشاهدتهم. بالذاتِ الواد "بيكهام" و"كهرباء" أما "كلبظ" السمين فأحسن حارس مرمى في المنطقة، يحب مشاهدتهم على عكس جاره الذي يكرههم، وينزعج منهم، وينزل الشارع لمطاردتهم وتمزيق الكرة بالسكين، لماذا يفعل هذا؟ ربما كان لاعبًا سيئًا وبطيئًا وثقيلاً، ولم يحرز هدفًا واحداً قط.

يعلو صوت أذان العشاء، فيغلق صوت التلفاز ويصلي وبعدها يعود مرة أخرى للفرجة على برامج المساء، يحب التلفاز جداً، ويكره الكتبِ، على عكس فيفي التي تكره التلفاز وتحب الكتب جداً، ما أن تنتهي من واجبات المنزل حتى تستلقي على فراشها وتقرأ في رواية أو كتاب، تخبره عن مضمونها كأنها تقص لحفيدة أختها حدوتة قبل النوم، لم يرزقهما الله بالولدِ؛ لذا سيموتان سويًا وينقطع ذكرهما عن العالم للأبدِ.

يغلق التلفاز أخيراً، ويمشي بخطواتٍ بطيئة إلى غرفة النوم، يرى فيفي نائمة والكتاب على صدرها فيغطيها جيداً ويقبِّل جبينها، ويخرج متسللًا إلى المطبخ، وهناك يفك مسامير الساق الخشبي التي صلحها بالصباحِ، تنهض فيفي وتتسلل بدورها إلى المطبخِ، وهناك تراه وهو يفك مسامير الكرسي وتبتسم.

تعود سريعًا إلى غرفة النومِ لتنام على الهيئة التي تركها بها، وينام بجوارها، يغمضان أعينهما كطفلين بريئين: هو يحلمها بوجهها الطفولي الحزين في الصباح، وهي تحلم بسره الصغير في المساء، ويعيشان ليوم جديد.

حذاؤها الأحمر

سألني الشيخُ منذ شهر واحد أن أبلغ السلام للعاهرة التي تسكن بنايتنا ونعتها بـ "مريم"، واليوم تجاهلني تماماً حتى خلا الدكان من الزبائن.

وقال وهو يعطيني الخبز والجبن: "العاهرة ستجلب لنا العار".

تساءلت مدعياً البراءة: "تقصد من؟"

فقال: "ياسمين".

وكرر اسمها ولعنها ثلاث مرات كأنما لم يلقِ عليها السلام منذ أيام.

"ياسمين" الفتاة التي تسكن الطابق الثالث، تجمعني الصدفة بها كثيراً مؤخراً، كانت لها براءة مريم العذراء، بيضاء كأنها مخلوقة من أنهار الفردوس، لكنها تغيرت بعدما خلعت حجابها، شعرها الغجري

يحلِّق وراءها كخيول سوداء، تصهل وهي تمشي، تدق الأرض بحذائها الأحمر، تشعل الجمر فينا، نحن الرجال، بشفتيها الشهيتين المزينتين بـ (الروج)، ربما لهذا خاف الشيخ منها، لكنني لم أخفْ، هي فتاة، وكل الفتيات لغز، وكل لغز يموت بإيجاد السر.

لم أكن مغرمًا بمراقبتها مثلما يفعل مراهقو الشارع، يجلسون بعد منتصف الليل على الدكة المقابلة للبناية، وينتظرون خروجها إلى الشرفة، تدخن سيجارة أو تنشر الغسيل، ويظلون في مكانهم حتى الفجر، وعندما يؤذن للصلاة يدخلون المسجد مع المؤمنين، فقط لكي يتلصصوا عليها من نافذة المسجد، يكررون هذا في صلواتهم الخمس ويستغفرون الله أحيانًا.

منذ شهر واحد فقط كان الشيخ يريد الزواج منها واليوم صار يلعنها وعهرها، وفي اليوم التالي سألني عما فعلت فادعيتُ النسيان، وظل يذكرني بفتنة جمالها، ودلالها، وعينيها الواسعتين فاشتهيتُها.

كان يلحق اسمها بـ: "لعنة الله عليها"، وكنت أردد وراءه رغم شرودي في نهديها.

قال الشيخ: "إذا ابتليتم فاستتروا".

هززت رأسي مدعيًا الاقتناع، والحق أن الشيخ كان مقنعًا وصادقًا، فهذه الفتاة الساحرة جعلت سمعة البناية في الحضيض، يقول المراهقون بأنها لم ترَ رجلاً في عمارتنا، وعلى الرجالِ أن يثبتوا للأطفالِ سذاجة دعاويهم، وأن نكون لهم قدوة.

قابلتها في درجِ العمارة كالمعتادِ، هزت لي رأسها فهززتُ لها رأسي، لم نتحدث من قبل برغم صداقة أهلينا، أو نتحدثُ دومًا من

خلالِ وسيط، تقول أمي لها: "أحمد يرى"، وتقول أمها لي: "ياسمين تقول"، تستمر هكذا العلاقة بيننا لا يفسدها شيء، أحس أحيانًا أن قلبها يدق لي، أحس هذا في حركات جسدها وتوترها لمّا تراني لكنني لا أصدق أن العاهرات قد يعشقن، طردتُ هذه الأفكار وقررت محادثتها، لم أفكر ماذا سأقول لها.

قلتُ أول ما خطر في عقلي: "الشيخ ينعتك بالعاهرة".

تسمرت أمام البوابة لوهلة، ثم هزت لي رأسها دون أن تنطق، دلفت شقتي سعيداً بما فعلتُ، كسبتُ عندها نقطة، وخسرت عند الشخ نقطة، لكنني لم أتوقع أن تفعل ما فعلت، توقعت أن تسعد لمّا تراني خائفًا عليها، ولم أظنها بالجرأة الكافية لتخبر الشيخ بشيء، جلستُ أمام اللاب توب وسمعت شتائم فرنسية بالأسفلِ، انسكب عصير المانجو عليَّ وأنا أعدو إلى الشارعِ، ورأيتها تشد لحية الشيخ بيدٍ وباليد الأخرى تضرب رأس المسكين بحذائها الأحمر، وقفت لثوانٍ معدودة مندهشًا لا أفهم ما يحدث ثم قلت في سري: "لتكن نقطتان هنا وهناك" وشاركتها الشجار، وضربت الشيخ على قفاه كثيرًا ثم صعدنا إلى البيت.

وبالطبعِ اختبأت من الشيخ ليومين، كنتُ أحصدُ غنائم الحرب، وأعد للخطوة الجديدة، الجميع يعرفون اليوم أن الشيخ تحرش بالفتاة الصغيرة في بئرِ السلم وأنها دافعت عن نفسها، كان أمرًا غير قابل للتصديق، لكن حتى سمعة الشيخ لم تكن قوية كفاية لتصمد أمام فتنة ياسمين، الفتاة غاوية وشهية، والشيخ ليس بيوسف.

في اليوم الثالث أمسكَ الشيخ بي وأنا أغادر العمارة، وقال: "علينا أن نتحدث"، كان غاضباً ويريد قتلي، لم يكن داهية بما يكفي.

قلتُ للشيخِ: "دعنا ننظر إلى الأمر كرجلين عاقلين، مشاجرة جديدة ستؤكد الشائعات".

وفهم الشيخ ما أقصد، ولم يقل غير: "غفر الله لنا".

وبدأ يفكر في طريقة أخرى للانتقام أو مداواة الأمر، قليل من الاستغفار لن يضر، والله يحب التوابين، أو ربما يعد مكيدة ما، على أية حال كانت ياسمين تخرج الآن من العمارة لذا تركني واختبأ.

قالت لي وهي تشير بأصبعها: "أريدك".

وتأملتُ أظافرها المطلية بالمانيكير، ثم ذهبت إليها ومشينا بعيداً عن شارعنا الفضولي، كانت الفتاة بدأت تسقط في عشقي، كانت هناك دلائل: لمعة عينيها، وارتعاش أناملها، وميل جسدها تجاهي وهي تمشي، قالت أنها تعرف أن الشيخ ليس سوى مدعٍ لكنها لم تتخيل أن يرميها بالعهرِ، وبدأت تتحدثُ عن الدين، وتستشهد بآيات عن قذف المحصنات، وكنت أنصتُ لها وأنا شارد تماماً في ساقيها الناعمتين وفستانها الذي يتطاير.

كانت ذاهبة إلى عيد ميلاد إحدى صديقاتها وتريدني معها، وفي التاكسي أخبرتها بأن الجميع كان يطلق عليها "مريم".

فوجدتها تسأل باهتمام: "والآن؟"

تعجبت من السؤال لكنها كانت تنتظر رداً، فقلت "ياسمين، فقط".

فضحكت بسعادة وقالت: "هذا يفسر لك الكثير".

لكنني لم أفهم ردها، هذه الفتاة إما غبية جداً أو أنني لا أفهمها.

جميلة ياسمين لها سحر موسيقى فرنسية سمعتها صدفة وفقدتها، نظرت إلى جميع الفتيات في المكان فلم أرَ في سحرها ولم أفهم سرها، كلهن متشابهات، ووحدها تتحدث بطريقة مختلفة، وتضحك بطريقة مختلفة، لماذا أراها جميلة إلى هذا القدر؟ كل ما فيها يشدني إليها، وأنا رجلٌ مجبولٌ على الصيد، والصيادون لا يؤمنون بالحبِّ، لكنني لم أستطع صبراً، لمّا جلسنا قبلتها فقبلتني، كانت شفتاها مبللتين بالخمرِ، نظرت إليَّ بعينين دامعتين وقالت: "اعرف اسمك ولا تفقده"، ولم أعرف مقصدها لكنني، بالتأكيد، كنت أعرف مقصدي إلى شفتيها.

في طريقِ العودة كنا نمشي كطفلين، ويدانا تتأرجح ، سألتني أن أخمن ماذا ستفعل لما تعود فأجبتها: "لا أعرف"، ولم أهتم، كنت أفكر متى سأضاجعها، هذه الفتاة أريدها وتريدني، والأمر بهذه البساطة، لكنها لم تنتظر ردي قالت: "سأرقصُ وأصلي"، فلم أرد، تركتها تذهب ووقفت قليلاً شارداً.

لا أعرف لماذا أحسست قلبي يدق بقوة لها، وينطق باسمها؟ هل أحبها بالفعل؟ وتذكرت أشياء جميلة قالتها، كنت مشوشاً جداً، أذكر شفتيها وهما يحتضنان شفتي، وكلماتها وهي تهمس بها في أذني.

ولم أحس بالشيخ يقف ورائي ويقول – فجأة –: "ياسمين .."

فأرددُ دون وعي مني: "لعنة الله عليها" ثلاث مرات.

ذات المعطف الأسود

مع كل خطوة تخطوها تتركُ خلفها وريقات من الورد الأحمر، ترتدي معطفًا أسود اللون محكمَ الإغلاق، يحميها من برد الشتاء القارس، ويمنع أسرارها الصغيرة من السقوط أو الهرب تراقبها أعين الناس في حيرة، يتساءلون عن تلك الجميلة وعينيها الدامعتين، تلقي برسائلها السرية على كورنيش "المعمورة" وردٌ أحمر، كأنها تريد بهذا أن يرتحل العشاق وراءها كل البلاد، لكن لم يتحرك أحدٌ؛ أحس الجميع بالجبن ، أفزعهم أن يخدعهم تأويل الأحلام، وأفزعهم أكثر أن يصدقَ التأويل.

الشمس كادت تغرب حين توقفت الفتاة لتتأمل زرقة البحر، والعصافير كانت تحلق فوق رأسها، السحب الكثيفة في السماء لم تحجب الضوء، تسللت الأشعة من ثقوب الغيم للأرض، فبدا الغروب جميلاً وحزينًا،

والبحر كان غاضباً كالمعتاد، والموج ما زال يحارب الصخر، والليل آتٍ، أرسل البحر رائحة اليود إليها، فأغمضتْ عينيها في خشوع كأنها تصلي، تفتحهما مرة أخرى، تحسُ بالغضب، لم يهدئها البحر قط، تحس بالمرارة، وإن ظلت ملامحها هادئة ثابتة كاذبة.

يكثر الشباب حولها، لكنهم يظلون على خوفهم من الاقتراب، لم يفكر أحدُ بمعاكستها، حتى مجانين العشق ادَّعوا الحكمة فجأة، فيها شيءُ يجبرك على الصمت، غموضُ يزيد من سحرها، حزنُ يقودك نحو الموت بسعادة، يموتُ الناس حولها، وهي لا تبالي، أعطتْ ظهرها للناس والعالم، وانفصلت عن الزمان والمكان.

رحل عنها الأغبياء، وأحاط بها الشعراء والرسامون والموسيقيون، جميعهم يتساءلون: "ربما تشتاق لحبيب غائب، أو تحاول نسيان حبيب جاحد، أو تبحث عن عالم جديد؟"

ما سرّك يا ذات المعطف الأسود؟

ما سرّك يا فاتنة الورد الأحمر؟

ما سرّك؟

الشمس تابعتْ طريقها نحو الرحيل، واستسلمتْ الأرض لطغيان الظلام، هبتْ رياح الليل الباردة، فأدارت الفتاة وجهها للناحية الأخرى، وهناك رأت طفلاً وطفلة يلعبان بالكرة، يلقيانها لبعض في سعادة نادرة، كأنهما في الجنة معًا، كانت الطفلة جميلة بخدين محمرين، يشع من وجهها براءة ونور ملائكي، ظلت تراقبها وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة شاحبة قليلاً، لكنها جميلة

بلا شك، يكفي أنها ابتسمتْ، حتى وإن زادتها الابتسامة حزنًا، يكفي أنها ابتسمتْ.

تدحرجت الكرة ببطء نحوها حين ركلها الصغير، أوقفتها الفتاة بقدمها ثم أمسكتها، تقدمتْ الطفلة ببطء نحوها كي تأخذ منها الكرة وعلى وجهها ابتسامة خجلة، ابتسمتْ لها الفتاة بدورها تشجعها على الاقتراب أكثر، وحين وقفت أمامها لم تعطها الكرة، بل همستْ في أذنيها ببضعة كلمات، فضحكتْ الصغيرة كثيراً، كان الصغير يراقبهما في دهشة، يتساءل: "ماذا تقول؟" يريد الكرة كي يتابع اللعبَ، يحلم بأن يعود مرة أخرى للجنة .. ربما.

أخذتْ الطفلة الكرة وأمسكتها بيديها جيداً، ثم نظرتْ لصديقها الصغير بخجل، تقدمت ناحيته وهي عازمة على أمر ما، عيناها فضحتاها، غير أن تخمين الطفل قد خاب؛ إذ ظن أنها سترسم قبلة صغيرة بشفتيها على خده، وأفاق حين فوجئ بصفعة قوية منها، انتفض.. احمر وجهه من الغضب والحيرة، نظر لها وقد فغر فمه اندهاشاً، لكن الطفلة لم تفسر شيئًا، فقط ضحكتْ، نظر للناحية الأخرى حيث كانت تقف ذات المعطف الأسود، لكنه لم يجد أحداً هناك.

رحلتِ الفتاة بمجرد أن غربت الشمس، ذابت في الليل بمعطفها الأسود كأنها لم تكن سوى روح منه، اختفتْ من المكان تماماً لكنها تركتْ فيه بعض أشيائها، تركتْ في بلاط الكورنيش وريقات الورد الأحمر، وتركتْ في الهواء عَبق الغموض، وتركت في المكان بعض الحكايات، لكنها احتفظت بالأسرار لروحها والبحر.

كرسي هزاز

أجلسُ على الكرسيِّ الخشبي الهزاز، أقرأ في مجلة "ميكي ماوس" التي بين يدي وأشردُ كثيرًا في الشرفة المقابلة لبيتي، الشرفة مغلقة دومًا ومظلمة، لكنني أعرفُ أن "سلمى" تجلس في الظلامِ مثلي، تمسكُ برواية بين يديها وتحاولُ القراءة لكنها تشردُ في النجوم والقمر وتتجنبُ الظلام، تتمنى أن تكون محظوظة حتى ترى شهبًا فتصلي قائلة: "يا ربنا ارزقنا قصة أو قصيدة نكون أبطالها".

أحاولُ بعيني أن أتجاوز ستائر الظلام كي أراها، أقولُ: "لماذا لا تكون نائمة ولا تفكر بي؟" وقد تكون نائمة وتحلمُ بي، يأخذُني الحنين إليها فأتركُ نفسي، كـ "عقلة الأصبع"، للتحليقِ على جناح ذكرياتي.

كانت طفلة مدهشة، لها ضفيرة بنية وعينان لامعتان، مميزة عن كل طفلات الحي بل والعالم، ينقصُها جناحان فقط حتى تصير

ملاكًا، لكنها بالرغمِ من هذا كانت تتقنُ التحليقَ بـ (البسكلتةِ) أمام أعيننا، وكنتُ ألعبُ حافيًا ومشردًا مع أطفال الحي، أنتظرُها وهي تخرجُ من فيلّتها، تقودُ بسكلتتها، وتضحكُ حين تنظرُ إلى أصابعي المتسخة، أتوقفُ عن مطاردة الكرة كالأحمق حين أراها؛ وأطاردها هي، لا أشعرُ بعيني وهي تدمع، من الجميلِ أن تعشقَ طفلة تجعلك تبكي وتنسى لعبة كرة القدم، لا أتذكر أصدقائي، ولا أراهم وهم واقفون هناك متسمرين، يدمعون ويراقبوننا بالمثل.

لم يجرؤ أحدٌ من أطفال الحي الحفاة على الحديثِ معها، لكنهم كانوا يتحدثون – بالطبعِ – كثيرًا في غيابِها، يحكي كل فردٍ منهم عن النظرات السرية التي تجمعُ بينهما، ويقسمُ كل فردٍ أيضًا أنها تذوب في هواه مثل (الجيلاتي) يكذِّبُ بعضهم بعضًا فيتشاجرون ويضربون بعضهم البعض، وحدي كنتُ أتجنبُ الحديثَ عنها ومشاجراتها، وأراقبهم من بعيدٍ؛ لأنني أحمق مثلهم، كنتُ أُوقِنُ أنها تعشقني وحدي دون الجميع.

كم من الأعوام مرت وأنا أراقبها؟ وهي تكبر أمام عيني كأنها طفلتي الصغيرة، ضفيرتها تتحررُ يومًا بعد يوم وهي تجري ببسكلتتها بعيدًا، وأنا لا زلتُ ألعبُ حافيًا في الشارعِ كرة القدم، رأيتها ذات يوم وهي تسيرُ مع صديقاتها بزي الإعدادية، وتدخلُ محل أيس كريم، تركتُ الماتش كالمسحور ودخلت المحل وراءها، رأيتُها تطلب ثلاثة أيس كريم؛ لها ولصديقتيها اللتين بالخارجِ، اتجهتْ نحو البابَ لكن الباب كان مغلقًا في وجهها؛ فعرفتُ أن الحظ

والقدر يقفان في صفي في هذه اللحظةِ، فتحتُ البابَ لها والتقت أعيننا فنظرت إلى الأرضِ خجلاً وضحكت كثيرًا، لم تقلْ كلمة: "ميغسي"، لكنني قرأتها في عينيها، وهي تتلفت في مشيها، تنظرُ إليَّ وإلى الأرضِ وتضحك كثيرًا.

كيف لم أعترفْ لها بعشقي بعد؟

ربما تذكرتُ أنني كنتُ حافيًا فعرفتُ سر ضحكاتها، وربما كنت أنتظرُ حتى أشتري حذاءً جديدًا، الفقر هو العقدة الوحيدة والحقيقة في القصصِ الواقعية، كنت أراها كأميرة إحدى الحواديت، لكنني لا أراني في الحدوتةِ أبدًا، كأن المؤلف تعمد تجاهلي، وأعطى الأمير قلبي، لو يتذكرني سيكتبني في الحدوتة كحداد فقير أو متسول، ماذا ستكون فائدتي حينها؟ هل تعشقُ الأميرةُ الحداد الفقير؟ قصة مبتذلة وصعبة التصديق،، للأمراء الأميرات وللخبيثين الخبيثات.

لكنني أُوقِنُ أنها تجلسُ مثلي في شرفتِها وتنظرُ شهبًا حتى تبدأ حكايتنا، أستطيعُ أن أرى شبحها، وهي تحاول اختراق ستائر الظلام مثلي حتى ترى شبحي يراقبها من بعيد، سأحادثها لا بد أن أفعل، في الصباحِ سأحادثها وأخبرها بكل ما في قلبي، سأخبرها أن الحداد الفقير الذي يلعبُ كرة القدم حافيًا .. يحبها.

في الصباحِ رأيتها، كان الطقس رائعًا، الشمس مشرقة والسماء صافية والعصافير تزقزقُ في كل مكانٍ. بالأمسِ حلمتُ بها واليوم أراها ترتدي ذات الملابس التي جائتني بها في الحلم وقبلتني، وقالت: "انتظرك يا صغيري".

شعرتُ بالتفاؤل، وعاودني طعم قبلتها الحلوة، لكن هذا الطعم تحول فجأة إلى مرارةٍ، عندما قالت لي بذوقٍ شديد، أو وقاحة بالغة، أنها تحب صديقها في الجامعةِ وأنهما على وشك الخطوبة، ركبت سيارتها وطلبت مني تمنيَ الحظ الجيد لها، قبل أن تنطلق بها وتتركني شبحًا لا يكاد يرى في عادم سيارتها.

كم من الوقت وقفت معي؟

دقيقة ونصف.. يا لبؤس الحداد الفقير.

* * *

أجلسُ على كرسيّ الخشبي الهزاز، أقرأ في مجلة "ميكي ماوس" التي بين يدي وأشرد كثيرًا في الشرفةِ المقابلة لبيتي، الشرفة مغلقة دومًا ومظلمةٌ، لكنني أعرفُ أن "سلمى" تجلس في الظلامِ مثلي، تمسكُ برواية بين يديها وتحاولُ القراءة لكنها تشردُ في النجوم والقمر، تتجنبُ الظلامَ، تتمنى أن تكون محظوظة فتصلي قائلة: "يا ربنا لا تكسر وزنَ قصيدتي".

أحاولُ بعيني أن أتجاوز ستائر الظلام كي أراها، أقول: "لماذا لا تكون نائمة ولا تفكر بأحدٍ؟ وقد تكون نائمة وتحلم بعشيقها، يأخذني الغضب إليها فأتركُ نفسي، كغول عظيم، لمهاجمة قصرها.

أتذكرُ أشياءَ أخرى عن طفولتي؛ تلك الطفلة التي كان تسكن الفيلا المقابلة وتدور حولنا بالبسكلتةِ، ترفضُ بغرورٍ أن تشاركنا ألعابنا مثل (الحجلة) أو (الاستغماية) ترمقنا دومًا بنظراتِ ازدراء كأننا مخلوقون من طين عفن وهي مخلوقة من طين آخر.

أتذكرُ لمّا كنا نلعبُ كرة القدم وركلها أحدنا فاصطدمت بها وسقطت أرضًا، جرينا جميعًا إليها للاطمئنان عليها، لكنها شتمتنا بشتائم فرنسية عديدة لم نفهمها، وابتعدت عنا وهي تبكي كطفلة مدللة وسخيفة.

أتذكرُ كم كانت مغرور ومتكبرة وقبيحة.

آه.. أتذكرُ.. أتذكرُ.

أتذكرُها وأتذكر كم كنت أكرهها.

حياة واقعية

-١-

الفرق بين الخيال والواقع هو خيط الحرية الرفيع

الليلة هي عيد ميلاد "ميكي ماوس" الجميع هنا يحتفلون بهذه المناسبة، يشربون الفودكا ويرقصون على أنغام الموسيقى، يقف رجال الأعمال بكروشهم في الركنِ وسجائرهم البنية، يبدون أشراراً كما أفلام الكارتون، حول طرق زيادة الأموال يثرثرون ويضحكون، بينما يقف ميكي ماوس في الظلِ، يراقبهم غاضبًا، ودوائر الدخان تزيد من عتمة نفوسهم.

و"ميمي" كانت تقف هناك مع صديقاتها الجميلات تضحك دون أن تدري شيئًا عما يدور في عقلِ حبيبها الفأر الصغير، ينظر إليها طويلاً، يريد الاحتفاظ بملامحها للأبدِ، يأخذُ نفساً عميقًا فيسعل.

الهواء ملوثُ بالدخانِ والشر، وهو يريد هواء نقيًا، يتحرك تجاه المنصة بخطوات واثقة، يعتليها.. يمسكُ بالمايك قبل أن يتأمل الجمهور قليلاً ثم يقول: "تعلمون.. لقد أحببت الحياة معكم أصدقائي، الألغاز الصعبة، وبالطبع الجمهور الذي يشاهدني في شاشة التلفاز".

ينظر ناحية الكاميرات ثم يقول: "لكن على ميكي المسن أن يرتاح قليلاً".

تتوقف أنفاس الجميع قبل أن يكمل قائلاً: "لقد قررتُ اعتزال حياة الكارتون للأبدِ، أريد أن أعيش حياة واقعية".

لقد صفق الجمهور المسجون بالخارجِ في الكافيهات والنوادي، لقد شعروا جميعًا بوجع بطلهم، وأرادوا أن يحققوا أمنية عيد الميلاد، تسابقت الكاميرات للوصول إلى ميكي فور النزول من المنصة لكن رجال الأعمال قبضوا على الفأر أولاً، أوصلوه إلى غرفة مغلقة وهناك صرخوا: "هل جننت؟".

فأجاب: "كنت أتخيل رد فعلكم، ولهذا اخترتُ إبلاغكم عبر الكاميرات، لن تستطيعوا سَجْنِي، أنصتوا إلى صرخات الناسِ بالخارجِ".

الجميع معًا يصرخون: "أعطوا ميكي الحرية".

نظروا إلى وجوه بعض ثم قالوا: "لكنك نجمنا المحبوب".

فقال: "لكنني من حقي أن أكون حرًا".

صرخوا: "لن نمنحك الحرية".

فضحك وقال: "الحرية تؤخذ عنوة ولا تمنح". وأخبرهم بأن الكاميرات بالخارجِ.

سيفضحك الجميع، سيقول الحقائق التي أخفوها زمنًا، "بندق" العبقري الذي جعلوه أبلهَ، و"بطوط" الذي أجبروه على ادعاء الفقر بينما هو في الحقيقة شريك رسمي في مصانع "عم دهب" الكريم، بطوط الذي لم يظهر للوجود إلا عندما قَلَّتْ شعبية ميكي، سيخبرهم بأن كل همهم هو جمع النقود، وأنكم تتاجرون بسعادة الناس لا أكثر، وقد ذكروه بميمي الفأرة الجميلة التي لن يستطيع تحريرها، فصمت قليلاً وقال بحزن عميق: "لا طعم للحبِّ دون الحرية".

-٢-

لأن الكاتب كان مصريًا – شديد العشق لمصر حد التطرف– فقد كتب الآتي:

من بين كل بلاد العالم اختار ميكي أن يسكن مصر؛ لأنها بلد الأهرامات وأبو الهول والنيل، والشجعان "أحمس" و"مينا" و"إخناتون" بلد الجميلات "حتشبسوت" و"نفرتيتي" و"كليوباترا" بلد "عرابي" و"مصطفى كامل" و"سعد باشا" و" عبدالناصر"، بلد"أم كلثوم" و"أسمهان" و"العندليب" و "السندريلا" بلد العجائب كلها (مصر العظيمة) وربما يجد هناك "أليس" الجميلة ويحبها.

-٣-

ولأن عبد الناصر عشم نفسه بالحَلَق

فقد خرم ميكي أذنيه الكبيرتين

كل شيء كان جنونيًا هناك ثورة، الدبابات والطائرات تحوم حول قصر الملك "فاروق" بالمنشية، والضباط الأحرار يستولون على مراكز القيادة، يتم إذاعة البيان الأول فيشجع الناس بجنون، والجنون يقرب الواقع إلى الخيال، والخيال هو موطن ميكي ماوس الأصلي؛ لذا لم يشعر أبدًا بالغربة في مصر.

أحس بأن هذه البلد هي وطنه الأصلي، جلسَ مع الناس في المقاهي، سمع نكاتهم البذيئة، قابل محفوظًا، وسروراً، والعقاد، وأحبّ ثقافة هذا البلد، لقد زار الأهرامات فوق جمل هزيل، ودفع من المال الكثير، عرف بذكائهِ المعهود أن هذا البلد يعيبه اللصوص وبرغم هذا أحبه، فالناس يضحكون طول الوقت، يتشاجرون أحيانًا لكنهم يعودون في الطريق معًا.

ينتظرون "الست" حتى تغني ويهزون رؤوسًا مع آهاتها، وحين يعلو صوت "عبدالناصر" من الراديو فإن الجميع يتلهفون للقتال (مصر تبني أمجادها، تكتب تاريخًا جديدًا) لقد كان ميكي ذكيًا بما يكفي لِئن يقف وراء "ناصر" مع "هيكل" كل شيء كان جنونيًا آنذاك هناك ثورة، وللثورة ضحاياها، وميكي عاش آمنًا وراء عبد الناصر.

-٤-

لأن الكاتب عاش حتى عصر "السادات"

فكان نتيجة ذلك : العمر المديد لـ "ميكي"

الحرب توشك على الاندلاع، يصرخ "أمل دنقل" في الندواتِ والمقاهي الثقافية: "لا تصالح"، لكن ضوضاء الشارع تمنع صيحة دنقل من الوصولِ إلى قصر الرئيس المؤمن.

يصرخ دنقل: "ولو قيل دم بدم"، لكن رائحة الدماء يخفيها عطر السلام، جدران القصر تمنع رائحة الدم والعرق.

صرخ دنقل: "ولو منحوك الذَّهب"، لكنهم يكفرون بالأنبياء، ودنقل كان نبيًا بلا شك.

لقد سجن الجميع بما فَيهم ميكي وهيكل، وبقي الرئيس وحده في القصر، كان الناس يمشون بين أشلاء الديموقراطية وأنيابها.

"الزم بيتك" كانت الفكرة الأفضل، وميكي هناك في السجن ينتظر، يكتب الأحلام على جدار الأيام، يتذكر ميمي، ويتمنى لو شاهدها قليلاً على شاشة التلفاز، يتذكر آليس فيقول: "ربما تسكن في مدينة أخرى".

وانتظرَ ميكي أن يثور الشعب فلم يفعل، وبرغم هذا جاءت النهاية قريبة ودموية.

-٥-

لأننا في الواقع لا نختار النهايات بل هي التي تختارنا

فيا ليتَ "ميكي" اختار الخيال

كل شيء كان واقعيًا آنذاك، وميكي هو ابن الخيال المخلص، لم يجد الحكايات في هذا العصر، ميكي ماوس لَمْ يَعُدْ يحلم، ميكي ماوس لم يعد يرقص، ميكي ماوس لم يعد يرفض، ميكي ماوس ظل مختبئًا في البيتِ كأي فأر عادي مذعور وجبان؛ لأن هناك فتوى صدرت في عهد "مبارك" بأن :

(ميكي ماوس يجب أن يُقتل).

الهواجس الأخيرة

لم أكتب يومًا مذكراتي؛ لأن الحياة رتيبة، وهي على أية حال فكرة لا يقوم بها سوى المدعين، لم يحدثْ شيء جديد منذ شاهدتُ وفاة ميكي ماوس في حلمٍ ما، الشوارع ساكنة ورجال الشرطة يحفظون السلام، وأنا لا أنام، تزورني هواجس كثيرة هذه الأيام، أقول لنفسي: "من الأفضل نسيانها لا تخليدها في الورق" فربما إذا نسيناها تموت.

غريبٌ أمر هذه الهواجس تأخذني إلى عوالم لم أرها من قبل، تشد روحي من جلدي إلى خارج الزمن لها رائحة مقززة، حاولتُ دفنها كثيرًا لكنها تأبى أن تموت، تزيح عن جسدِها التراب والكفن، وتخرج عارية إليَّ، ربما لأننا نسكن نفس القبر معًا.

الهاجسة رقم (١)

بتاريخ غير معلوم

أسير بخطى ثابتة فوق العدم الأبيض، لا شيء حولي، لا سماء ولا تراب، أستند على عكاز لا يراه سوايَ، والناس من حولي يمشون ولا يشعرون بوجودي، أرتدي بذلة وطربوشاً، أتذكر جلبابي وعمَّتي التي نسيتها في القرية، متى صرت أفنديًّا؟! أحاول مجاراة الناس من حولي، لكنهم يبتعدون عني، تترنح خطوتي وحدي وأكاد أسقط، أستند على العدم وأحاول النهوض.

بدأت أكتب الهواجس وأفكر وأقرأ، أنا الذي كرهت القراءة في صغري، أجدني اليوم ألجأ إليها في محاولة الفهم، يطل عليَّ فأرة بيضاء وتحذرني، يطل عليَّ ميكي ماوس من وراء القضبان، أقول: "ما هذه الصور التي تطاردني في كل مكان؟" صور مبعثرة مبتورة لا أفهم منها شيئًا، أقرأ عن الأفكار السلبية التي تسكن العقل، أقول: "أفكارنا هي العالم"، تدخل الهواجس عقلي من ثغرة أفكاري، أردد ما يناقض تلك الأفكار لعلي أهزمها فلا أقدر.

حاولتُ النوم لكن النوم حاربني بالهواجسِ لا بالكوابيس، أفتح عيني فأرى كرسيًا هزازًا يتحرك وحده، أفتح عيني عن آخرها فأرى صوراً كثيرة، فأنهض مسرعًا لكتابة ما أراه، أشعر أنني نبي يهمس للحواريين بنبوءات عهد جديد.

الهاجسة رقم (٢)

الغريب أنني لا تزورني الكوابيس!

رأيتُ فيما يرى النائم: أن الأرض زرقاء، ليس فيها غير خراب، وعلى الأطلال بعض الغربان، هياكل في الأرض وجماجم، أجساد لا نهود لها ودماء في كل مكان، شعرتُ بالخوفِ من المشهد.

ماذا لو بعث الموتى من مرقدهم؟

فإذا من كل هذه العظام شيء يخرج، إنسان لم يكن ميتًا أو حيًا، يقترب مني، يريد أن يلمسني ويهمس: "ساعدني".

فأعدو ويعدو، يطاردني يصرخ بصوت مبحوح: "ساعدني".

فأعدو حتى أصل إلى نهاية الورقةِ، وأصرخ بدوري: "أريد النوم فقط".

لم أفعل شيئًا اليوم، شاهدتُ التلفاز قليلاً، التلفاز ينومني، المذيعة الجميلة تفتح عينيها عن آخرها وهي تحرك يداها وتضحك بجنون.

أقول: "أين الخط الفاصل بين الواقع والحلم؟"، أتذكر الصداع الذي يسكن رأسي، أفكر أن أضع رأسي محل قدمي لكنني أتراجع عن الفكرة، ربما لأنها فكرة غبية، وربما لأنني مقلوب بالفعل.

الهاجسة رقم (٣)

ربما ثمة مشكلة!

أشعرُ بكل شئ حولي: الفراش بارد، والقمر أزرق اللون، ضوء يتسلل إلى من أسفلِ الباب، أحاول النهوض فلا أستطع، أسمع ضحكات بالخارجِ.

كيف يضحك الناس؟ ولماذا لا أضحك؟

أجدني عابسًا مثل كلب قابلني مرة في فيلم كارتون، ما اسم الكلب؟ ما نوع الكلب؟ ولماذا أهتم؟! أحاول النهوض فلا أستطع، وأسمع صوت خطوات بالخارجِ تقترب مني، أنتظرها أظل هكذا أسمعها وأنتظرها، وتظل على حالها ولا أرى صاحبها أبدًا.

لمّا استيقظت وجدتُ عقلي صافيًا تمامًا، لا تتحكم الهواجس بي، أستطيع الآن أن أتحكم بها، أسمع أشياء لا وجود لها وأرى أشباح لا أعرفهم، هكذا ظننتُ لكنني لمّا حاولت أن أطرد هذه الأشباح قالت بأنها سعيدة بصحبتي، همست بفحيح: "أنت نبيّ".

الهاجسة رقم (...)

ما قبل القيامة

اليوم سأصعد إلى السماءِ؛ لأن الأب ينتظرني، صلبوني على جذع شجرة، أناس كثيرة كانوا يشبهونني، كلهم لهم عينايَ وأنفي، دقوا المسامير في جسدي، حطموا ضلوعي، ألبسوني تاج الشوك، وقالوا ساخرين: "أنت ملك الحمقى"، ثم قالوا: "بل أنت هو المخلص"، وبكوا نادمين.

سمعت إبليس يهمس: "مملكتك روحية".

أنا لا أريد روحًا، أريد: و .. ط .... ولم يسمعني أحد.

الهاجسة رقم(....)

القيامة

كانت الرحلة مختلفة، الظلام سميك كالجدران، أحاول النهوض أصطدم بالظلام من حولي، تضيق الجدران عليَّ كما القبور.

سأل نفسي: "أين أنا؟"

أنظر إلى الأعلى فأرى أناسًا يلقون التراب عليَّ، وهم يسجدون لي، أصرخ: "هذه قيامتي"، فلا يسمعني أحد.

أقول: "أنا ملك الحمقى"، وأعجبُ من مقولتي.

أقول بتوسل: "يا ناس تدفنون حيًا".

فيرددون: "مُتْ كي تصير إلهًا".

الهاجسة رقم(.......)

الملكوت أخيرًا

لا شيء، فقط بدأت أتأقلم مع الوضع.

الهاجسة رقم (...............) / ....

أصبحت هواجسي ممتعة.

الكهف المقدس

القمر الجبان هرب كالمعتادِ عند الفواجع، والسماء استسلمت تماماً لسطوة الغيوم، على الأرض وقف الناس في دائرة أمام الكهفِ، وقفوا على مسافة كافية لتحميهم من بطشِ الحراس، يمسكون بشعلاتهم ويترقبون ما سيأتي من دمٍ، تتسلل من الكهف رائحة بخور طيبة فتتقزز نفوس الناس والحراس؛ لأن أرواحهم لم تعتد طهارة كهذه من قبل.

لقد نسي الجميع العهد، وتذكروا فقط نعيب بومة تهرب من المكان، وبالرغمِ من هروبها اتهموها وألزقوا بها ما سيجرى، تعالى من الداخلَ صرخة امرأة، رجت الجبل وأفزعت صدور الحراس، فترجلوا عن خيولهم وأشهروا سيوفهم، ولمّا خرجت بصحبة حارسين كانت في حالةٍ يرثى لها، فستانها ممزق، ونهداها ملوثان بالطين، غض الناس بصرهم عنها، وادعوا أنهم لم يروا شيئًا.

رن صليل سيوف بالداخلِ ولم تطل، خرج الحراس وهم يجرون رجلاً مقيداً بالأغلال، رموه على الأرضِ أسفل قدمي قائدهم، نظر المسكين عاليًا فرأى نصل سيف لامع وسواد الليل، أغلق العينين مستسلمًا للموتِ الذي لم يأتِ لم يقتلوه، تركوه وحيداً وابتعدوا، جروا الفتاة معهم وهي تصرخ، وهم يضحكون، والناس من حولهم صامتون.

لمّا جاء النهار ظلت الشمس مختبئة، ونجح الرجل المقيد في التحررِ، كان الناس قد رحلوا، سار مترنحاً إلى القرية يريد الفهم، قابل صاحبه فسأل: "كيف تركتني؟".

قال: "إن ساعدتك لن أجد رأسي وهي مهمة للنومِ".

قابل والده فذكره بالعهد، رد أباه: "لو كان الكهف مقدساً لنسج العنكبوت الردى وعششت الحمام عندك في سلام".

صاح بالناسِ: "لقد استباحوا العهد، فلماذا لا تقاتلون؟".

صاح الناس بدورهم: "هذا قدر الله ونحن قومٌ مؤمنون".

لم يكن ثائراً من قبل، كان قديساً سكن الكهف كي يبعث بالنبوءات القديمة.

تقول النبوءة: "ستجدها تسبحُ عارية في النهرِ لأجلكَ".

ورآها وشم رائحة الجنة فيها، وأخذها إلى الكهفِ وأراد أن يبشر بها الناس، هي قبلَة الضائعين، هي الأرض والياسمين، إذا وجدتها حرّرتُ بها العالم من الشرور، غير أن هناك نبوءة أخرى تحذر من طلسم ما.

وقفَ في منتصفِ الحكاية يحاول الفهم، هناك مساحة عدمية لا يفهمها، لم يكن مقدراً للملكِ أن يشتهيها، هي ملك للناس، وفي يدها قلوب الناس، قررَ أن يقتل هذه الأسئلة بإجابات خرساء، مشى وحده حتى القصر ليحارب، لم يكن يعرف بأن لا فائدة من الثورة، فقد ضاجع الملك تلك المرأة ودنس جسدها، لم تكن شهوة عمياء، كان الملك عليم بكل شيء وحكيم، بيده الملك، والناس مجبولون على العبادة وإن لم يروا خالقهم.

لمّا دخل القلعة شعر باليتم القادم، جرى في كل مكان حتى وصل إلى المقصلة، وهناك رأى رأسها يتدحرج على البلاطِ، سقط على الأرض منهزماً، تركه الحراس يعود إلى البيت، كان مقدراً أن يعيش وحده، وأن تفصل بينهما السماء والأرض.

لم يكن ثائراً من قبل، كان عاشقاً أحب هذه الفتاة ما أن رآها، أحب البيوت والطين والنهر والحقول، ولمّا رآها علم بأنها ولدت فقط كي تعيد للناسِ إيمانهم، لقد سكنوا الكهف منذ عصور غابرة خشية الوحوش التي ملأت الأرض وخرجوا، ولمّا خرجوا رأى أن الأرض تليق بالإنسان، شاسعة ومليئة بالخير، وقرروا بناء قريتهم هنا.

دخلَ إلى الغار فلم يشم رائحة العطور ولم يسمع صلاة، قرأ النبوءات التي كتبها أجدادهم من قبل، لم يصدق شيئاً منها، هرب متقززاً من الأحلامِ، وبعدها عاد.

عاد ليذكر الناس بما فقدوه، فرجموه بقسوة ونبذوه، وقالوا: "هللويا"، ومجدوا الملك ولعنوه.

لم يطل البقاء بينهم، أمسكَ فأسًا ووقف أمام الكهف للحظات، نظرَ إلى القمر الذي أطل ليراقب ما سيجري قبل أن يختفي هاربًا مرة أخرى لما بدأ الهدم .. وهنا اكتمل الظلام.

المحتوى

- فأر يُدعى ثعلب 11
- ملاك أسود 17
- غرفة الفئران 23
- لعنة كيوبيد 27
- مصيدة الفراشات 33
- أمنا الغولة 37
- حزن النخيل 45
- خيانة عابرة 49
- خرافة عابرة 53
- مغامرة عابرة 57
صندوق قذر 67
- بقعة دم 71
- بنت وولد 75
- حذاؤها الأحمر 79
- ذات المعطف الأسود 85
- كرسي هزاز 89
- حياة واقعية 95
- الهواجس الأخيرة 101
- الكهف المقدس 107

كان يجلسُ في مقعدٍ حجري. أخرجَ رواية إنجليزية للبائس تشارلز ديكنز وادعى قراءتها. أمام المقعد كانت توجد نافورة كبيرة على هيئة كيوبيد الصغير الشرير، في تلك الحديقة الدائرية، والتي لها ورود حمراء كثيرة. غريب الأطوار ، عشريني، ويعاني من بداياتِ بعض الأمراض مثل: الفوبيا، الانطوائية، ونوبات رعب. يريدُ الهروبَ بعيدًا من خلال الذوبان في هذا العالم القذر.

الثمن: جنيهان

www.gocp.gov.eg